أوراق عمل مؤتمر

التصوف الراشد

جذوره، آفاقه ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

المهندس مروان الفاعوري

الدكتور عبد الفتاح اليافعي
الدكتور محمد زاهد جول
سماحة الإمام الصادق المهدي
الدكتور محمد كورماز
الدكتور إبراهيم الخليل البخاري

الدكتور عبدالمحمود أبو
الأستاذ إبراهيم العجلوني
الدكتور عزمي طه السيد
الدكتور قحطان الدوري
الدكتورة إنصاف المومني





طُبع بدعم من وزارة الثقافة
2 0 2 1

التصوف الراشد

جذوره، آفاقه ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

التصوف الراشد

جذوره، آفاقه ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

المهندس **مروان الفاعوري**

الدكتور عبد الفتاح اليافعي

الدكتور محمد زاهد جول

سماحة الإمام الصادق المهدي

الدكتور محمد كورماز

الدكتور إبراهيم الخليل البخاري

الدكتور عبدالمحمود أبو

الأستاذ إبراهيم العجلوني

الدكتور عزمي طه السيد

الدكتور قحطان الدوري

الدكتورة إنصاف المومني







٢٠٢١

التصوف الراشد: جذوره، آفاقه، ودوره في بناء الحضارة الانسانية
تأليف: مروان عواد الفاعوري..[وآخرون]
تصميم الغلاف: دار الفينيق للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى: عمان، 2021
الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة.




دار الفينيق للنشر والتوزيع
عمان، المملكة الأردنية الهاشمية
هاتف: 497 55 15 78 - 096 19 96 79 962+
Email: phoenix.pub@hotmail.com
www.phoenix-pub.com

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
2021 / 10 /5972

219
التصوف الراشد: جذوره، آفاقه، ودوره في بناء الحضارة الانسانية /مروان عواد الفاعوري..[وآخرون]
عمان : دار الفينيق للنشر والتوزيع، 2021
( ) ص
ر. إ.: 2021 /10 /5972
الواصفات:/التصوف الاسلامي//العلماء المسلمون//الحضارة الاسلامية/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الترميز الدولي: 978-9923-45-053-6




" التصوف الراشد: جذوره، آفاقه ودوره في بناء الحضارة الإنسانية "

- **مقدمة**:

حقق التصوف – باعتباره نزعة أصيلة – في كل دين حضوراً ملموساً في التاريخ الإنساني قديماً وحديثاً، وهو في الإسلام يترجم عن أثر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في صقل الأرواح وتصفية الأنفس والقلوب وتنبيه الأذهان إلى حقائق الوجود وآيات الله فيه.

إن التصوف الإسلامي القويم في فهمنا هو أن يبلغ المؤمن درجة "الإحسان" التي هي أعلى الدرجات في التوجه إلى الله عز وجل، بعيداً عن الغلو المتشدد أو الإنغماس في الصراع السياسي المستنزف والذي يُشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]

وقال رسول الله ﷺ حينما سئل عن الإحسان: الإحسان أن تعبد الله كأنَّكَ تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لقد امتزج الجانب الأخلاقي من التصوف بالجانب الفلسفي العرفاني، كما كان له أثره في الجوانب الإجتماعية والسياسية في شتى أقطار الأرض التي وصلتها أنوار الإسلام، وهو أثر لا نزال نتقرّى أبعاده في حياتنا المعاصرة ولا يزال ذا حضور ملموس فيها.

ولأجل مزيد من المعرفة لأصول التصوف الإسلامي، ولما كان له من آفاق وتجليات، ولما يُنتظَر أن يكون له من دور في واقع ومستقبل الأمة الإسلامية والعالم أجمع، كان هذا المؤتمر، والذي سيتم عقده بالتعاون ما بين المنتدى العالمي للوسطية ومنتدى الفكر العربي يوم الثامن عشر من شهر أيلول لعامنا هذا ٢٠١٩.

- **أهميـــة المؤتمر**:

ينبع أهمية هذا المؤتمر من خلال رسالة المنتدى العالمي للوسطية في إلقاء الضوء على حقيقة التصوف الراشد الذي يساهم في عمليات إصلاح الفرد والمجتمع معـًا.

كذلك إبراز حقيقة أن التصوف هو جزء أصيل من تراث الأمة الإسلامية يخدم الإنسان وكرامته وذاتيته.

كذلك يأتي أهمية انعقاد هذا المؤتمر في ظل الظروف والتحديات الصعبة التي تمر بها الأمة وظهور حركات التطرف والإرهاب على صعيد الفكر والممارسة .

إن قيام هذا المؤتمر سيعزز مفهوم الوسطية والإعتدال لدى الأمة من خلال الحفاظ على المورث القيمي والأخلاقي لإعادة الثقة لأبناء الأمة الإسلامية الواحدة ودورها في محيطها القيمي والأخلاقي، والتوازن كنهج إسلامي رائد في حل الخلافات بالحوار ورفض التأزيم والصراع والعنف مهما كانت أسبابه ومبرراته.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه البررة المُتقين ..

وبَعد أيها الحفل الكريم ؛ فَهَا نحن أُولاً نستروح أنسام الجنان ونَسْتَلْهِمُ أنوار العِرفان، في مُستهل مؤتمرٍ نعتقد أنه قد جاء وقتُهُ وحضِرَ أوانُهُ وتظاهرت أسبابه؛ إذ قست قلوبٌ كثير من الخَلق، وعَمِيت بصائرهم عن محاسن الاخلاق التي هي قوام إنسانية الانسان، وعن معارج الأرواح التي تَصّعدُ فيها هِمم السالكين من الدركات إلى الدرجات لتشهد من مرتقاها ذاك وحدانية ربّ العالمين ووحدة البشر أجمعين، ولِتَخْرُجَ بأهل هذه الدنيا من ضيق ماهم فيه من أسباب الحروب، وتَعِلّات التظالم ؛ إلى حيث سَعَةُ التصور ورحابة الإيمان ومن حالة الهروب من الواقع إلى حالة المواجهة للتحديات التي تعصف بالأمة وكيانها والكيد الذي يحيكه بني اسرائيل ومن ظاهرهم وشايعهم علينا أجمعين، وإلى حيث يستشعر بنو آدم معنى الرَّحِم الواحدة التي تشملهم جميعـًا، ثمّ يترجمون ذلك أَمَنةً فيما بينهم وسلامـًا، وأخوةً وانسجاماً وما ذلك على الله سبحانه بعزيز .

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[الجمعة:٢].

التصوف كما هو معلوم علم يختص بتزكية النفوس وتهذيبها وضبطها لتتلقى أحكام الشريعة بشوق ولذة ومتعة لمثل هذه الآيات الكريمة التي ذكرناها، وهو مقام الإحسان الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث سينا جبريل المشهور : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه البخاري ومسلم.

وروى القشيري في مقدمة رسالته عن الجنيد سيد المتصوفة رحمه الله تعالى أنه قال في التصوف :

"مذهبنا هذا مُقيَّد بأصول الكتاب والسنَّة".

وقال الجنيد : "علمنا هذا مشيّد بحديث رسول الله ﷺ".

وقال الجنيد : "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من أقتفى أثر عليه الصلاة والسلام".

وقال الجنيد: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنَّة".

وروى أبو محمد الجريري قال: سمعت الجنيد يقول: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع؛ وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات".

وبناء على قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) . رواه أبو داود (٤٢٩١) وغيره وصححه الحافظ العراقي .

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري [لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر – بعض الأئمة –في الطائفة وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد].

أيها الأخوة الكرام، أيها الأخوات الكريمات، أيها المنتدون من رُسُلِ التنوير المتحاببين في الله الساعين في مرضاته، والذين لهم البشرى بأن يكونوا على منابرَ من نور يوم تشرق الأرض بنور ربّها .. إن مما نأمله في مفتح هذا الندوة الجليل أن نكونَ بمشهد وسيع الجَنَبات من حضور التصوف في تاريخ الاسلام خاصّة وفي تاريخ البشرية عامّه لنبين دور التصوف في تعميق روح الإيمان والخلق (وخالق الناس بخلق حسن)، كما أن قسوة الحياة وتشعب وديانها أودى بالإنسان في معارج تاه فيها عن قبس الهدى والنور وانتشر الإلحاد بين شبابنا وساعد على ذلك استنزاف أفراح الروح روح الإسلام الجميلة في أتون الصراع السياسي القاسي بين الساسة والدعاه، فكان هذا الملتقى لنكون ظاهِرينَ على جذور هذه الظاهرة الروحية وعلى آفاقها، وعلى وقع نماذج واعلام السادة المتصوّفة الذين تمثلوا حقيقة

الإيمان وخلائق الاسلام، سائلين الله العلي القدير أن نخرج من فاعليتنا المباركة هذه بأجر المجتهدين وعاقبة المُتقين، وبما يزيدنا خُبْراً وإدراكـاً لدور التصوف المأمول في توازن العالم وسلامه، في حاضره الذي نرى، وفي مستقبل أيامه .

إننا نعول على هذا المؤتمر أن يؤكد على ضرورة مراجعة خطاب المتصوفة وآليات مباشرتهم لهذا الدرب الموصل إلى الله عبر الإبتعاد عن الشطط وما خالف العقل وصريح النص.

لقد درج التصوف مع الفكر الإسلامي منذ يومه الأول، يصعد بصعوده ويهبط بهبوطه؛ كما تدرجت المعارف الصوفية تدرجًا طبيعيًّا، من الزهد والعزلة والذكر والتصفية القلبية، وما يلهمه صفاء القلب من فهمٍ في كتاب الله، وإدراكٍ لأسرار كلام رسوله، كما نشاهد في صوفية القرن الأول إلى سمات امتاز بها القرن الثاني؛ إذ انتقل التصوف إلى آفاق أرحب وأشمل، إلى معارف الروح وإلهاماتها، ومعاني المحبة وأقباسها، وحنين القلوب وأشواقها، وتعددتْ مدارس التصوف، وتعددت ألوانه وطرائقه ومذاهبه، تعددًا ظهرت آثاره واضحة مشرقة في صوفية القرن الثالث والقرون التالية، فمدرسة سعيد بن المسيب، وهي مدرسة التصوف الممزوج بالفقه والتوحيد، بلغتْ ذروتها في الأعلام الهُداة: الغزالي، والرفاعي، والجيلاني.

ومدرسة إبراهيم بن أدهم، وهي مدرسة التصوف الذي سِمَتُه المحبة المشبوبة، أنجبتْ ذا النون المصري، أكبر المتحدثين عن النفس ومقاماتها، والبسطامي العلَم الفرد في توضيح حالات الفناء، وهي أسمى مراتب المريدين وأعلى قمة المحبين؛ حيث تنكشف في ساحاتها الحقائق الإلهية المكنونة على غير أهلها، وحيث تسمو الروح في رحابها إلى مرتبة الفيض والإشراق.

ثم يأتي دَوْر الكمال الصوفي، ممثلًا في شيخ الطريقة الجُنَيْد، الذي شرب من كأس الحب، حتى انتشى.

وبناء على كل ما تقدم فإننا نرجو ونأمل أن يكون جمعنا هذا الذي حوى سادة من نخبة علماء التصوف أن يبثوا فيها روح التجديد والنهضة بالصوفية والتصوف وتحقيق الأمور التالية :

١- بث العلم والوعي في صفوف المنتمين إلى منهج التصوف وذلك بتوجيههم عبر نقطة تواصل إلى العلم الصحيح المبني على نصوص الكتاب والسنة، وعدم التعصب والتقليد المذموم كما أوصى بذلك إمام التصوف الجنيد رحمه الله تعالى .

٢- أن يقوم العلماء المؤهلون المتضلعون بتنقية وتصفية هذا الفكر وتراثه مما علق فيه مما لا يثبت عند البحث والتمحيص تحقيقا للتجديد الذي جاء في الحديث الصحيح .

٣- توجيه المنتسبين لهذا المنهج ليكونوا مؤثرين ومصلحين وقدوة صالحة في مجتمعاتهم وليحيوا هذا الطريق المبني على (تزكية النفوس) ويدعو الناس إليه على علم وبصيرة دون إفراط في تعظيم المشايخ أو ادعاء عصمة لهم وأنهم لا يخطئون، فالإمام مالك رحمه الله تعالى يقول : (كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ) .

٤- السعي إلى إيجاد نظام وقانون لأهل التصوف تضبط فيه شروط الشيخ المربي وما هي المؤهلات التي ينبغي أن تتوفر فيه حتى يكون مرشداً مربياً.

٥- إيجاد هيئة لأهل التصوف تقوم بحل المشكلات وسوء التفاهم الذي يقع بين أتباع الطرق أحيانـاً .

إننا من مؤتمرنا هذا ومن خلال هذه النقاط نهدف إلى النهضة بأرباب هذا المنهج المبارك، لئلا يبقى بعض أفراده غير مدركين ولا عارفين بالضوابط التي وضعها كبار الأئمة من السادة الصوفية ﷺ الذين لا يريدون أن يعيش أفراد هذا السبيل في غير الواقع ولا يقتصرون فقط على طرب القصائد أو سماع قصص الكرامات دون تحقيق أسس هذا المنهج الذي هو الطريق الأقوم إلى الله تعالى.

ولقد يَحْسُنُ بنا في هذا المقام التوجّهُ إلى مؤسساتنا الأكاديمية وجمعياتنا الأدبية وأساتذتنا المختصين بالحركات الاجتماعية والدينيّة إلى إيلاء هذه الظاهرة المتميزة الاهتمام اللائق بها، معتبرين مؤتمرنا هذا علامة على طريق وخطوة معتبرة فيه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المهندس مروان الفاعوري
الأمين العام للمنتدى العالمي للوسطية

التصوف
حقيقته- مذاهبه وأشكاله

د. عبد الفتاح بن صالح قديش اليافعي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد :

فإن أعلى مراتب الدين ولب الإسلام وروحه هو الوصول إلى مقام الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والطريق لتحقيق هذا المقام هو التزكية والسلوك، وقد كان الأئمة على مر العصور يسمون ذلك بعلم التصوف، والناس تجاه التصوف ما بين إفراط وتفريط ووسط :

- فأفرطَ أُناسٌ فذموه بإطلاق ونظروا إلى ما في بعض من انتسب إليه من مساوي فحكموا على الكل بذلك.
- وفرط أناس فقبلوا ما جاء عن كل من انتسب إلى التصوف وقد انتسب إليه من يقول بالاتحاد والحلول وإسقاط التكاليف وغير ذلك من الانحرافات.
- وتوسط أناس فقالوا : التصوف بمعناه السابق كله حسن لكن المنتسبين إليه منهم من هو متحقق بذلك المعنى ومنهم من يسعى إليه ويتشبه بأهله ومنهم من اهتم بالرسم دون المضمون ومنهم من انحرف عن ذلك المعنى.

قال الإمام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١١/ ١٧ : (تنازع الناس في طريقهم :

- فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.
- وطائفة غلت فيهم وادعوا انهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

- **والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد** الذي هو من أهل اليمين وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.
- ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة **ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم).**

وقال ابن القيم في مدارج السالكين :٢/ ٣٥ : (فيقال : **هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات**، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ. وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس :

إحداها : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار وأساءوا الظن بهم مطلقا **وهذا عدوان وإسراف فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها .**

والطائفة الثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم، ونقصانها فسحبوا عليها ذيل المحاسن . وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم ،وهؤلاء أيضا معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : - وهم أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد .)

حقيقة وماهية التصوف

لا يهمنا هنا المعنى اللغوي للتصوف واختلاف أهل العلم في اشتقاقه، حيث قال بعضهم: هو نسبة إلى الصفاء لاهتمام أهل التصوف بصفاء القلوب، وقال آخرون: هو نسبة إلى أهل الصفة لتشبه أهل التصوف بهم، وقال آخرون: هو إلى نسبة إلى الصوف للبس أهل التصوف للصوف وكان أدنى اللباس، وقال آخرون: هو نسبة إلى كلمة صوفيا وهي كلمة يونانية تعني الحكمة.. إلى غير ذلك من الأقوال.

لكن الذي يهمنا هنا هو المعنى الاصطلاحي للتصوف ، وأيضا لا يهمنا هنا ذكر خلاف العلماء في المعنى الاصطلاحي ، لأن بعضهم عرف التصوف بالثمار أو ببعض الثمار وبعضهم عرفه ببعض المقامات أو بعض الأحوال ... ألخ

ولكن الذي يهمنا هنا هو خلاصة المعنى الاصطلاحي وزبدته وهو : تزكية النفس وتربيتها للوصول بها إلى الاستقامة مع الحق والاستقامة مع الخلق بالعلم والعمل والتخلية والتحلية، والترقي بها للوصول إلى معرفة الله عز وجل أي الحضور معه سبحانه في كل حال

وهذا في الحقيقة هو مقام الإحسان الوارد في حديث جبريل وهو معنى سامٍ ونبيل وجميل ومحمود ومطلوب شرعا بل هو روح الإسلام ولبه ، قال الإمام الغزالي : (اعلم أن التصوف له خصلتان : **الاستقامة مع الله تعالى، والسكون مع الخلق فمن استقام مع الله عز وجل، وأحسن خلقه بالناس، وعاملهم بالحلم فهو صوفي** ، والاستقامة أن يفدي حظ نفسه على أمر الله تعالى ، وحسن الخلق مع الناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم، ما لم يخالفوا الشرع)[من أيها الولد ص ٤٨]

وقال أيضا : (**طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس. والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة**، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله)[من المنقذ من الضلال ١٤٥]

فالتصوف الحق يعنى بصلاح القلب وتطهيره من الآثام، وكذا تطهير الجوارح، وذلك فرض عين على كل مسلم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، (**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم**)، (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله**)

ولذا عد ابن تيمية الصوفي الذي يدخل في الوقف على الصوفية هو من تتوفر فيه ثلاثة شروط: الأول : أن يكون عدلا في دينه، والثاني : أن يكون ملازما لغالب الآداب الشرعية في غالب الأوقات، والثالث : أن يكون قانعا بالكفاية من الرزق، حيث قال في مختصر الفتاوى المصرية (ج ١ / ص ٣٥٨): (**وأما الصوفي الذي يدخل في الوقف على الصوفية فله ثلاثة شروط**: أحدها أن يكون عدلا في دينه، والثاني أن يكون ملازما لغالب الآداب الشرعية في غالب الأوقات وإن لم تكن واجبة مثل أدب الأكل والشرب واللباس والنوم والسفر

والركوب والصحبة والعشرة وحسن المعاملة مع الخلق إلى غير ذلك من الآداب الشرعية قولا وفعلا ولا يلتفت إلى ما أحدثه بعض المتصوفة من لاآداب التي لا أصل لها في الدين من التزام شكل مخصوص في اللبسة ونحوهما مما لا يستحب في الشريعة فإن مبنى الآداب على اتباع السنة ولا يلتفت إلى ما يهذر به بعض المتفقهة من آداب ظنها مشروعة يعتقد لقلة علمه أن ذلك ليس من آداب الشريعة لكونه ليس فيما بلغه من العلم الاعتبار بالآداب بما جاءت به الشريعة قولا وفعلا وتركا.

- والشرط الثالث في الصوفي قناعته بالكفاف من الرزق بحيث لا يمسك في الدنيا ما يفضل عن حاجته فمن كان جامعا لفضول المال لم يكن من الصوفية)

وكلامنا هنا إنما هو عن التصوف الحق بمعناه عند واضعيه فإن قال قائل أنا أسمي هذا المعنى الحسن بالتزكية أو بالسلوك أو الجانب الروحي ... إلخ ، فنقول : لا مشاحة في الاصطلاح والعبرة بالحقائق لا بالمسميات ،كما قيل (العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني)

قال الشيخ عبد القادر عيسى في كتابه حقائق عن التصوف ص ٥ : (... وعلى كلٍّ فإننا لا نهتم بالتعابير والألفاظ، بقَدْرِ اهتمامنا بالحقائق والأسس. ونحن إذ ندعو إلى التصوف إنما نقصد به تزكية النفوس وصفاء القلوب، وإصلاح الأخلاق، والوصول إلى مرتبة الإحسان، نحن نسمي ذلك تصوفاً .

وإن شئت فسمه الجانب الروحي في الإسلام، أو الجانب الإحساني، أو الجانب الأخلاقي، أو سمه ما شئت مما يتفق مع حقيقته وجوهره؛ إلاَّ أن علماء الأمة قد توارثوا اسم التصوف وحقيقته عن أسلافهم من المرشدين منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا، فصار عُرفاً فيهم)

مذاهب التصوف وأشكاله

ما سبق هو المراد من التصوف عند أهله وواضعيه وعليه فالتصوف كله حسن وجميل ، لكن المنتسبين إلى التصوف قسمان :

- قسم مشى على هذا المعنى وسعى إليه وهو حال أكثر المتقدمين من أهل السلوك
- وقسم انحرف عنه وحاد وهو حال كثير من المتأخرين

وهؤلاء المنحرفون عن التصوف ممن انتسب إليه أقسام :

- قسم انحرف في الاعتقاد كالقائلين بالاتحاد والحلول أو التجسيم والتشبيه أو إسقاط التكاليف ونحو ذلك من الاعتقادات الباطلة.
- وقسم انحرف في المقصد فصار مراده بالتصوف ليس الوصول إلى الله بل الوصول إلى الخلق بجمع المادة والارتزاق وتحقيق أغراض النفس إما من الحاكم أو من المحكوم
- وقسم بقي في رسم التصوف وشكله وشغل به عن مقصده ومعناه ومضمونه فهو مهتم بالمظهر دون المخبر وظن أن ذلك هو التصوف.

وهذا الانحراف في بعض المنتسبين إلى التصوف لا يعود على الأصل بالنقض فكما أن هناك من المنتسبين إلى علم الحديث من هو منحرف في اعتقاده أو مقصده ومع ذلك لم يعد على الأصل بالنقض وقل مثل ذلك في المنتسبين إلى اللغة والأصول وو ... لخ فكذلك التصوف، قال الشوكاني في رسالته في التصوف المطبوعة ضمن الفتح الرباني برسائل الشوكاني: (**وإذا فرضنا أن في المدعين للتصوف من لم يكن بهذه الصفات وعلى هذا الهدى القويم فإن بدا منه ما يخالف هذه الشريعة المطهرة وينافي منهجها الذي هو الكتاب والسنة فليس من هؤلاء** والواجب علينا رد بدعته عليه والضرب بها في وجهه كما صح عنه ﷺ أنه قال : (كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد) وصح عنه ﷺ أنه قال (كل بدعة ضلالة) ومن أنكر علينا ذلك قلنا له وزنا هذا بميزان الشرع فوجدناه محالفا له ورددنا أمره إلى الكتاب والسنة فوجدناه مخالفا لهما وليس الدين إلا كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ والخارج عنهما المخالف لهما ضال مضل.

ولا يقدح على هؤلاء الأولياء وجود من هو هكذا فإنه ليس معدودا منهم ولا سالكا طريقهم ولا مهتديا بهديهم فاعرف هذا فإن القدح في قوم بمجرد فرد أو أفراد منسوبين إليهم نسبة غير مطابقة للواقع لا يقع إلا ممن لا يعرف الشرع ولا يهتدي بهديه ولا يبصر بنوره)

وقد وجد فيمن انتسب إلى الصوفية من يقول بالحلول والاتحاد ومن يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف، وهذا الاعتقاد ليس من التصوف في شيء وقد تبرا أهل التصوف ممن قال ذلك قال السيوطي في كتابه تأييد الحقيقة ص٩٥: (وقد تأملت الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرَ صوفيا محققا يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادعوا أنهم صوفية وليسوا منهم، والراجع منها إلى أصول الدين أربعة:

الأول وهو شرها: الحلول والاتحاد وهو كفر صريح وضلال مبين ولم يقل به أحد من المعتبرين وحاشاهم من ذلك، بل ما زال المعتبرون من الصوفية ينبهون على تضليل من يقول به وتكفيره ويحذرون منه، منهم الغزالي في عدة مواضع من الإحياء...)

ثم ذكر كلام الغزالي في التشنيع على القائلين بذلك، وأردفه بكلام أئمة الصوفية في تضليل وتكفير القول بالحلول والاتحاد، ومن ذلك قول القاضي عياض: (أجمع المسلمون على كفر أصحاب الحلول وكفر من ادعى حلول الباري في واحد من الأشخاص **كقول بعض المتصوفة** والباطنية والنصارى والقرامطة)

ثم قال السيوطي ص١٠٦: (فانظر كيف نقل ذلك عن بعض المتصوفة وهم الغلاة منهم لا كلهم حاشاهم من ذلك، وكذلك لم ينقل أصحاب الكتب الكلامية ذلك إلا عن بعضهم، قال ابن جماعة في شرح الكوكب الوقاد: يجب أن ينزه الله تعالى عن الحلول خلافا للنصارى وبعض الصوفية تعالى الله عن ذلك...)

ثم قال السيوطي ص١٢٤: (**الأمر الثاني: القول بالإباحة، وهذا أيضا لم يقل به أحد من المعتبرين وإنما قال به بعض الغلاة،** زعموا أن الإنسان إذا وصل إلى حد الفناء سقط عنه التكليف وأبيحت له المحرمات، **وقد تقدم في كلام القسطلاني الإشارة إلى ذم ذلك وأنه زندقة وكذلك في كلام أبي نعيم...**)اه ثم ذكر كلام أئمة الصوفية في ذم ذلك.

الطرق الصوفية

الطريقة مصطلح مأخوذ من القرآن قال تعالى: (وألوا استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) والطريقة في اصطلاح أهلها هي: (اسم لمنهج احد العارفين في التزكية والأوراد اخذ بها نفسه حتى وصل إلى الله تعالى فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه).

وقد كان للطرق الصوفية والزوايا والتكايا الدور الكبير في نشر الاسلام وتعاليمه في كثير من انحاء العالم وخصوصا افريقا وجنوب شرق اسيا.

واذا كانت الطريقة لا تخالف الشريعة فلا اشكال في الاخذ بها والانتساب اليها بشرط عدم التعصب، وقد اشتهر كثير من اهل العلم والصلاح بطرقهم في التربية والتزكية واقتدى بهم اهل العلم والصلاح على مر العصور كالشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ احمد الرفاعي والشيخ ابو الحسن الشاذلي وغيرهم.

قال ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى ١١/ ٥١٠ : (**وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر**).

وقال كما في مجموع الفتاوي ٣/ ٤١٦ : (بل **الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها**: مثل انتساب الناس إلى إمام كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، **أو إلى شيخ كالقادري والعدوي ونحوهم**، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسي واليماني، وإلى الأمصار كالشامي والعراقي والمصري، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان).

وقد انتسب كثير من اهل العلم والصلاح الى طرق التصوف ولا يتسع المقام لذكر من انتسب الى الطرق الصوفية من اهل العلم على مر العصور فليطلب ذلك في مضانه من كتب طبقات الصوفية والتراجم ولكن اريد هناأأن نذكر بعض المشاهير من اهل العلم ممن انتسب الى الطرق الصوفية.

فمثلا هذا ابن قدامة المقدسي كان قادري الطريقة كما في المَنْهج الأحمَد في تراجم أصحاب الإمام أحَمَد ٢/ ١٩١ للعُلَيْمي، وهذا عز الدين بن عبد السلام كان سهرودي الطريقة كما في طبقات الشافعية لابن السبكي ٨/ ٢١٤.

بل ان ابن تيمية كان قادري الطريقة كما ذكر ذلك جمع من اهل العلم منهم الإمام محمد بن محمد بن سليمان الروداني في كتابه (سلسلة الفقه الحنبلي) ص١٣٠ والامام يوسف بن عبد الهادي في رسالته (بدء العلقة) وقد طبعت في دار الرازي بعمَّان ضمن رسائل من التراث الصوفي عام ١٤٢٣هـ، بتحقيق الدكتور إحسان ذنون الثامري، والدكتور محمد عبد الله القدحات.

وهذا الذهبي كان سهروردي الطريقة ذكر ذلك عن نفسه في سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٧ وفي تاريخ الإسلام ١/ ٤٦٨٩، وهذا الشوكاني كان نقشبندي الطريقة ذكر ذلك عن نفسه في البدر الطالع ١/ ٤٠٦، وهذا الشيخ حسن البنا كان حصافيا شاذليا، ذكر ذلك عن نفسه في مذكرات الدعوة والداعية ص١٩.

التصوف والجهاد والسياسة

ينسب البعض إلى الصوفية ترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك المشاركة في الحياة العامة وما شابه ذلك لمّا رأوا من أن بعض الصوفية كذلك، بينما الناظر في تاريخ الصوفية في القديم والحديث يجد الأمر بخلاف ذلك، **ويجد أن الكثير من الصوفية في الزمن الأول كانوا من المرابطين في ثغور الإسلام أمثال: الربيع بن خثيم وإبراهيم بن أدهم وحاتم الأصم وأبي يزيد البسطامي والجنيد والسري السقطي، بل إن نور الدين محمود زنكي ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، وكذا محمد الفاتح كانوا من الصوفية كما لا يخفى على المطلع على تراجمهم.**

وكذلك كثير من الحركات التحررية ضد الاستعمار في العصر الحديث كانت من الصوفية **كما هو الحال في الحركة السنوسية وعمر المختار في ليبيا والأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر والمهدي في السودان وعز الدين القسام في الشام**.. وقد كتب الأستاذ أسعد الخطيب كتابا في ذلك أسماه (البطولة والفداء عند الصوفية – دراسة تاريخية) وثق فيه كل ذلك وذكر الكثير مما لم نذكره ولولا خشية الإطالة لنقلنا نبذا منه.

وعند النظر إلى المصلحين والعلماء والقضاة عبر الزمان نجد الكثير منهم من الصوفية كأمثال الغزالي والنووي والعز بن عبد السلام وابن قدامة وابن القيم والسيوطي ... إلخ ولا يخفى ذلك أيضا على من طالع تراجمهم.

بل إن كثيرا من قادة ومنتسبي الحركات الإسلامية المعاصرة في مصر والشام والهند وأفريقيا والعراق واليمن وغيرها هم من الصوفية. ولا يعني هذا أنه ليس في الصوفية سلبيون بل يوجد فيهم سلبيون كما يوجد في غيرهم من الطوائف، ولكن الخطا في التعميم.

التصوف ومشكلات العالم

تقدم ان التصوف هو الإحسان في التعامل مع الخالق والإحسان في التعامل مع المخلوق، وكل مشكلات العالم هي إما من عدم الإحسان مع الخالق أو من عدم الإحسان مع الخلق.

فبعدم الإحسان مع الخالق تنزل البلايا والمصائب والشرور، قال تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) وبالإحسان مع الخالق تحل الخيرات والبركات والمسرات قال تعالى: (ولو أن أهل

القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال تعالى (وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا)، وبعدم الإحسان مع المخلوق تحصل الحروب والشحناء والبغضاء والغش والحسد والخداع والمكر وسفك الدماء وانتهاك الأعراض ونهب الأموال وكل ما نراه من شرور بين الناس.

والمخرج من ذلك كله هو بالتصوف.. ليس التصوف الشكلي والاهتمام بالرسوم والمظاهر بل بالتصوف العميق الحق الذي به صلح أول هذه الأمة ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما قال الإمام مالك.

صلاح أهل الحكم والسياسة

فعلى صعيد الحكم والسياسة اذا كان الحاكم من اهل التصوف والتزكية فانه سيراقب الله في كل صغيرة وكبيرة في حكمه للرعية، فلا يظلم أبدا ولا يأكل من أموال الرعية، بل لا يخطر له ذلك على بال، وسيعمل جاهدا على خدمة الرعية ونشر العدل بينهم، وها هو سيدنا عمر ﵁ لتحققه بمعاني التصوف قال: (لو أن بغلة في العراق عثرت لخشيت أن يسالني الله عنهما يوم القيامة، لمَ لم تسو لها الطريق يا عمر؟)، ولتحققه بهذا المعنى كان يطوف في الليل على بيوت أهل المدينة يتفقد أحوالهم لينظر من هو محتاج أو مظلوم، ولتحققه بذلك قال لبطنه وقد سمع منه قرقرة الجوع : (قرقر أو لا تقرقر فوالله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين)، وقصصه ﵁ في ذلك أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

ثم إذا انتقلنا إلى عمر بن عبد العزيز ﵁ الذي تحقق بذلك المعنى نجد أن العدل قد انتشر في زمانه حتى إن الذئاب لا تعدو على الغنم وحتى لم يوجد في زمانه فقير من المسلمين، وقد كان ﵁ له شمعتان للسراج في الليل، واحدة اشتراها من بيت مال المسلمين والأخرى من ماله، فان كان سهره لأمر من أمور المسلمين أشعل الشمعة التي من بيت المال وإذا كان سهره لأمر خاص أطفأها وأشعل الشمعة الأخرى، ثم إذا انتقلنا إلى صلاح الدين الأيوبي ﵁ الذي تحقق بهذا المعنى نجد انه قد نشر الخير والعدل في البلاد والعباد، ولا نريد أن نطيل بذكر تفاصيل عدلهم في الحكم لان المقام لا يتسع.

وفي المقابل إذا كان الحاكم خاليا من هذه المعاني فانه سيكون أصلا لانتشار الفساد والبلاء والظلم والنهب والخراب والحروب والفتن كما هو الحال إلا من رحم الله.

صلاح الرعايا والشعوب

وأما عن الرعية فإذا تحققوا بتلك المعاني فسيكونون عونا لحكامهم على الخير ناصحين لهم مطيعين لهم في طاعة الله ورسوله، داعين لهم بالتوفيق والرشاد، فان رأوا من حكامهم ظلما أو غفلة صبروا ونصحوا كما أوصاهم الكريم ﷺ.

أما الرعية الذي ليسوا متحققين بتلك المعاني فإما أن يداهنوا الحكام ويسكتوا على الباطل ويكونوا عونا للحكام على الظلم والفساد. وإما أن يكون همهم كراسي الحكم والوصول إليها فيتسببون بالفتن والبلايا وسفك الدماء وخراب البلاد والعباد كما هو حاصل.. نسال الله أن يرفع البلاء ويحقن الدماء.

هذا في تعاملهم مع حكامهم أما عن تعامل بعضهم مع بعض فإذا تحققوا بمعاني التصوف فستنتشر بينهم الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة والحب والإخاء والولاء والنصرة والتعاون والتآزر والإيثار والإحسان والكرم والمواساة والصلة والبر والصدق والنصح..الخ وعلى العكس من ذلك عندما يهملون معاني التصوف فستنتشر بينهم الأخلاق السيئة والصفات القبيحة والشحناء والبغضاء والعداء والكيد والمكر والخيانة والبخل والظلم والخداع والعقوق والقطيعة والتهاجر والتدابر..الخ كما هو الحال إلا من رحم الله.. نسال الله العافية.

صلاح أهل المال والاقتصاد

وعلى سبيل المال والاقتصاد فصاحب ذلك إذا كان من أهل التصوف والتزكية فانه لن يكتسب المال إلا بالحلال ولن ينفقه إلا في الخير، وسيواسي به عباد الله ويقضي به حوائج الخلق، والمال والدنيا عند أهل التصوف لا شيء، ولذا لما تحقق الصحابة بمعاني التصوف صار الواحد منهم يقول لأخيك (خذ نصف مالي) وضربوا في ذلك أروع الأمثلة وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وكان الواحد منهم لا يبالي أن ينفق ماله كله في سبيل الله وبعضهم نصف ماله.

وأكثر ما يحصل بين الناس الآن من الحروب والشحناء والبغضاء هو من اجل الدنيا والمال فمن عرف قدر الدنيا وخرج حب الدنيا من قلبه لا يجعل الدنيا والمال سببا في إساءة المعاملة مع الخلق بل يجعلها سببا في حسن المعاملة مع الخلق إن يسرها الله له، فان زواها

عنه فلا ينازع الناس دنياهم بل يرضى بما قسمه الله له، ويرى ذلك من النعمة لان حلالها حساب وحرامها عقاب.

وإذا خلى صاحب المال عن هذه المعاني فانه سيتصف بالجشع والطمع والغش والخيانة والقسوة وعدم المبالاة بالخلق كما هو الحال إلا من رحم الله.

صلاح أهل العلم والمعرفة

وإذا جئنا إلى أهل العلم والمعرفة فانه من يتحقق منهم بمعاني التصوف سيكون همه كيف يعرف ربه بالعمل بالعلم، وكيف يعرّف الناس بربهم ويدلهم على الخير ويعلمهم ما ينفعهم، ولا يلتفت إلى ما يحصل بين بعض أهل العلم من الحسد والتنافس على الدنيا وأهلها

ومن تحقق بذلك تكون فتاويه وفق ما يرضي الله تعالى فلا يبالي برضا أصحاب المال والجاه والحكم أو سخطهم بل همه رضاء الله وسخطه، فهو حريص على العمل بما يرضيه ولو كان فيه سخط الخلق أجمعين وحريص على اجتناب ما لا يرضي الله ولو كان في عمل ذلك رضاء الخلق أجمعين.

وقد قال الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ج٢/ ص٣٥٧: (**فساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه،** ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر والله المستعان على كل حال).

صلاح أهل الدعوة والتربية

وإذا جئنا إلى أهل الدعوة والتربية فمن تحقق منهم بالتصوف فسيكون عنده همُّة كبيرة لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى الناس، ودلالتهم على الله تعالى، وسيكون الداعي رحمة للخلق كما كان سيد الخلق ﷺ، فمن امتلأ قلبه بمعاني التصوف امتلأ قلبه -ولا محالة- رحمة للخلق.

وفي القرن السابع الهجري خرج طائفة من أهل التصوف من علماء وصلحاء حضرموت إلى جنوب الهند للدعوة إلى الله ونشروا الإسلام هنالك ثم ارتحلوا الى جنوب شرق آسيا (اندونيسيا-ماليزيا-سنغفورة-تايلند-الفلبين) ونشروا الإسلام هنالك أيضا.

عدد المسلمين الذين اسلموا بسبب هؤلاء الدعاة في جنوب الهند وشرق آسيا يكاد يكون ثلث عدد المسلمين في العالم، لأنهم الآن هنالك ما يقرب من نصف مليار فضلا عن

اللذين ماتوا على الإسلام خلال القرون الثمانية الماضية منذ دخول الإسلام إلى تلك البلدان على أيدي أولئك الرجال.

أولئك الدعاة لم يذهبوا بالسيف ولم يذهبوا بالسلاح وإنما ذهبوا بالأخلاق النبوية والأحوال المصطفوية، لم ترق أي دماء في سبيل إدخال الناس في هذا الدين وإنما رأى منهم الناس أخلاقا ملائكية فسألوهم من أين لكم بهذه الأخلاق؟ فقالوا: هذه أخلاق ديننا الإسلامي، فقالوا: ما أحسن هذا الدين، فدخلوا في دين الله أفواجا ودخلت ملوكهم في هذا الدين أيضا.

امتهن أولئك الدعاة التجارة حتى لا يمدوا أيديهم للناس بل كانوا يكرمون الناس من تجارتهم، ولا تزال قصة دخول الإسلام إلى تلك البلدان محفورة في ذاكرة الأجيال هنالك يتناقلونها جيلا بعد جيل ويسمون أولئك الدعاء بـ(الأولياء التسعة) وقبورهم مشهورة مزورة إلى الآن وقد زرنا بعضهم عندما ذهبنا إلى شرق آسيا.

هذه هي مدرسة التزكية والتصوف .. آداب وأخلاق .. أذواق وأحوال.. محبة وسلام .. وهذه الأخلاق ليست بدعا من القول وإنما تلقوها أبا عن أب وشيخا عن شيخ إلى الحبيب المصطفى ﷺ ، فهذه أخلاقه وهذه آدابه. فلم يكن قط هدف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا غيره من الأنبياء والمرسلين هو قتل من لم يستجب لهم ولا إهلاكهم وإبادتهم وتدميرهم، وإلا لما كان مع الأنبياء حواريون وأصحاب؛ لأن الحواريين والأصحاب كانوا قبل الدعوة غير مؤمنين بالله ورسله، ولكن كان هدف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الأنبياء والمرسلين، بل وهدف كل داعية عرف حقيقة الدعوة؛ هو: إدخال الناس في دين الله.. إدخال الناس في الهداية.. إدخال الناس في الرحمة.. إدخال الناس في جنة الدنيا وجنة الآخرة، وهذا الأمر من الوضوح والجلاء بمكان، ولكن البعض قد يعمى عنه بسبب الفتن وردود الأفعال والغيرة والحماسة. والنماذج على ذلك من السيرة النبوية كثيرة جدا.

صلاح أهل الحرب والقتال

من تحقق بتلك المعاني علم قيمة الإنسان وانه نفخة الله وان قتله من اكبر الجرم (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) وعلم أن الحرب والقتل

مكروهة عند الله تعالى (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله).

فمن تحقق بمعاني التصوف يسعى جاهدا في إحلال السلم لا في إشعال الحرب، لكن إذا فرضت عليه الحرب من قبل أهل الكفر فلا يبالي بالموت بل يرى نفسه رخيصة من اجل الله، وإذا قاتل فليس متعطشا لسفك الدماء بل يقاتل وهو يتمنى الخير للمعتدي ويحزن عندما يقتل شخصا فيخرج من الدنيا على غير الإسلام، ويعلم حتى وهو في حالة القتال أن للحرب أخلاقا يحبها الله فلا يقاتل لحظ نفسه بل لأجل الله تعالى.

وها هو سيدنا علي ﷺ كان يحارب في احد المعارك فبارز شخصا من أهل الكفر المحاربين فسقط ذلك الشخص ورفع سيدنا علي سيفه ليضربه فتفل الرجل في وجه سيدنا علي فتركه وذهب ولم يقتله فقيل له: تركته بعدما تمكنت منه؟ فقال: كنت أقاتله لأجل الله فلما تفل في وجهي تحركت نفسي لأقتله من اجلها فما كنت لأقتل بسيف رسول الله ﷺ من اجل نفسي.

وقد كان أهل التصوف في مقدمة المجاهدين في سبيل الله على مر الزمان فعندما اخذ الصليبيون بيت المقدس تحررت على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الصوفي وقد كان كثير من جيشه ومقاتليه من جيل الصوفية الذين تربوا في الزوايا والخوانك، وفي العصر الحديث عندما احتل المستعمرون من أهل الكفر بلاد المسلمين كان الصوفية في أوائل وقيادات من قام للجهاد في سبيل الله لطرد المستعمر الكافر من بلاد المسلمين.

صلاح بقية المجالات والتخصصات

وإذا جئنا إلى أهل الصناعات والمهن والوظائف والأعمال فعندما يتحققون بمعاني التصوف فسيتحلون في أعمالهم بالإتقان والصدق والأمانة والنصح والانضباط والجد والتعاون، وفي المقابل عندما لا يتحققون بذلك فسينتشر فيهم الكذب والخيانة والغش والإهمال والكسل والحسد..الخ.

وإذا جئنا إلى الآباء والأمهات فعندما يتحققون بمعاني التصوف فسيسود البيوت الرحمة والرفق والأخلاق وسيتربى الأولاد على الخير والاستقامة والأخلاق والآداب والفضائل،

وعلى العكس من ذلك عند عدم التحقق بذلك فسيسود البيوت العنف والغلظة وسوء الأخلاق وستكون تربية الأولاد على الانحراف والأخلاق السيئة.

وقس على ذلك بقية المجالات في كل شؤون الحياة، والفيصل في ذلك أن الصوفي دوما مع الله في استحضار المراقبة والمشاهدة وقد عَمَرَ الله قلبه بالخير والنور والرحمة والنصح فهو في تعامله مع أي احد ينطلق من هذا الميزان (المراقبة-والرحمة)، وعليه فالحل لكل المشكلات والقضايا والتحديات في العالم هو بالتحقق بمعاني التصوف الحق والتزكية والله اعلم.

نسال الله العظيم رب العرش الكريم بجاه نبيه الكريم أن ينشر هذه المعاني في الآمة، بل وفي العالم، وان يصلح أحوال المسلمين وأن يجمع كلمة المسلمين، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

التصوف والسياسة
التصوف بين الماديات والروحانيات

د. عبد المحمود أبو

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه ورسله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تمهيد

جاء الإسلام دينا خاتما للرسالات السماوية، متضمنا لأصولها ومصدقا لكتبها ومصححا لانحرافات أتباعها ومتمما لتعاليمها قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى:١٣]. وجاءت تعاليم الإسلام شاملة لكل ما يحتاجه الإنسان فاهتمت بالجانب الروحي والجانب المادي والجانب العقلي والجانب التربوي والجانب الأخلاقي وغيرها من متطلبات الفطرة الإنسانية، وكان رسول الله ﷺ في دعوته يخاطب مطالب الإنسان في مجالاتها المتعددة كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[الجمعة:٢]. وسارت الخلافة الراشدة على نهج النبوة متبعة في الأصول ومجددة في الوسائل ومواكبة لمستجدات الحياة على حسب متطلبات الواقع دون إنحراف عن المقاصد الكلية التي جاء الإسلام للمحافظة عليها.

ومع تطور الحياة وتوسع رقعة الدولة الإسلامية وانتقال وظيفة الدعوة من الدولة إلى الجماعات؛ أصبحت كل جماعة تركز على محور من محاور الدعوة تأثرا بالبيئة المحيطة بها والواقع الذي تعيش فيه؛ فاهتم الكلاميون بتصحيح العقيدة، والمحدثون بالسنة النبوية،

والمتصوفة بالتربية والتزكية، وهكذا تعددت الجماعات العاملة في مجال الدعوة وتنوعت أساليبها واختلفت مجالات اهتمامها.

إنني أشارك في هذا المؤتمر الخاص بالتصوف عن علاقة المتصوفة بالسياسة وذلك عبر ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: مفهوم التصوف

اختلف الباحثون حول تعريف التصوف باختلاف الزوايا التي نظروا منها إلى التصوف؛ فمنهم من عرفه من خلال المحتوى والقضايا والمسائل والمفاهيم، ومنهم من عرفه من خلال المنهجية المعرفية والعملية، ومنهم من عرفه بالنتائج التي توصل إليها من مقولات وعقائد وممارسات وأفعال، أي من "مخرجات التصوف"، ومنهم من عرفه من خلال أعلامه وشخصياته البارزة(الجنيد وأبوطالب المكي والغزالي والحلاج وابن عربي)، ومنهم من عرفه من خلال الحقب التاريخية التي مر بها، عصره الأول وبدايته ومنطلقاته وحقبه الوسيطة والمتأخرة. وقد يصنف المحتوى إلى محتوى عقدي، وأخلاقي وعلمي ومعرفي وفني وأدبي وما هو خاص بالعبادات[1].

ومن التعريفات التي تقيمه تقييما إيجابيا، تقول:" إنه علم القلوب الذي يجعل القلوب نيرة سليمة وصحيحة" أو تقول: "إنه يحث على الإهتمام بالعبادات الباطنة، كإخلاص النية والتوجه بالعمل لله تعالى، ويحث على التوكل والصبر والمحبة والرضا" أو تقول: " إنه علم الأخلاق الذي يحث على التحلي بالأخلاق والصفات الحميدة وترك الصفات الذميمة"أو تقول: "إنه علم الحقيقة الذي يزود صاحبه بمعرفة أسمى وأعظم وأجل موجود وهو الله سبحانه وتعالى"أو تصفه " بأنه علم التجارب والأذواق والمواجيد والمكاشفات والإلهامات وعلم الباطن والعلم اللدني"[2].

[1] أنظر: التصوف وأثره في المجتمع، للدكتور: عبدالله حسن زروق. ص٤٦ شركة مطابع العملة السودانية، ٢٠١٥م الخرطوم

[2] التصوف وأثره في المجتمع، ص٤٧

وكما اختلفوا في تعريفه اختلفوا في أصل كلمة الصوفي هل هي مشتقة من الصوف أم من الصفاء؟ ولكل حجته وأدلته، فقيل:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا فيه ظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

وذكر ابن الجوزي: أن الزهاد في الكوفة لبسوا الصوف في القرن الأول؛ وكان أويس القرني يلبس الصوف؛ بل روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ " كان يلبس الصوف وينتعل المخصوف ويخصف نعله ويرقع ثوبه"[1]. وكان أهل الصفة لا يلبسون غير الصوف صيفا وشتاء، فكانوا يعرقون فيه صيفا فتفوح رائحة الضأن منهم كلما أصابه المطر.

ولعل الزهد هو الذي دفعهم إلى لبس الصوف هروبا من ملذات الحياة وحياة الدعة والراحة، ولا يفعل ذلك إلا من صفا قلبه، وأشار الإمام ابن القيم إلى جوهر التصوف بقوله: " في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه"[2].

إن التصوف الحقيقي لا يخرج عن ما ذكره ابن القيم؛ فالتصوف محضنا تربويا وروحيا وتنمية حميمية للشخصية المسلمة مرورا بالتخلي سعيا إلى التحلي ثم التجلي؛ وهو مؤسسة تشيع الآداب وصيغ السلوك الراقية في الصحبة والسفر والأكل والنوم والحديث والكسب وطلب الرزق وطلب العلم مع الزهد عما في أيدي الناس، واللجوء إلى الله والغنى عما سواه. إنه وسيلة للإصلاح العام وتدريبا عمليا على المشاركة في خدمة الخلق، وأخيرا يبقى التصوف صيحة إعتراضية على الفساد وعبودية المال والمتاع الدنيوي، وعلى المظهرية

---

[1] السابق ص١٠٩٥

[2] مدارج السالكين؛ لابن قيم الجوزية تحقيق الشيخ حامد الفقي/ طبعة دار الفكر العربي بدون تاريخ.

وحب الشهرة والتصدر بلا استحقاق، وحداء رقيقا نحو يقظة روحية تحيي موات القلب وتجدد الإيمان في الصدور[1].

لقد أرجع كثير من الباحثين المستشرقين التصوف إلى أصول فارسية وهندية ويونانية ونصرانية؛ مستندين إلى أن بعض أفكار التصوف وممارسات المتصوفة يوجد ما يشابهها في تلك المصادر مثل وحدة الوجود والمواجد والأذواق والحكمة ؛ وقد لخص أحد الباحثين العرب ما ساقه المستشرقون دلالة على تأثير النصرانية في التصوف الإسلامي في خمسة أمور:

أولها: التشابه في بعض المظاهر، مثل استعمال الخرقة في مقابل ما يستعمله الرهبان من ثوب على الكتفين، وكذا استعمال الصوف واتخاذه شعارا.

ثانيها: التشابه في بعض الموضوعات، مثل: محاسبة النفس.

ثالثها: بعض المشابهة اللغوية آرامية التركيب، مثل: ناسوت، رحموت، لاهوت، رباني، روحاني، ونحوها.

رابعها: الاختلاط بين المسلمين والنصارى العربفي الحيرة والكوفة ودمشق ونجران.

خامسها: ما يرويه الصوفية الأوائل من أقوال ينسبونها إلى المسيح عليه السلام[2]

ولكن المحققين لم يقبلوا هذا الزعم وأكدوا أن التصوف الإسلامي ظاهرة سنية، نشأت بين أهل السنة والجماعة وصدرت عن أسس إسلامية، وهذا لا يمنع أبدا – بل لعل هذا ما حدث فعلا– أنها تأثرت في رحلة تطورها الطويلة بمؤثرات خارجية، كان لها أثر ملحوظ في صبغ هذه الظاهرة السنية الإسلامية ببعض الألوان الجديدة مع بقاء الظاهرة مرتبطة بأصولها الأولى[3].

[1] في التصوف الإسلامي، تأليف أ. د. حسن االشافعي وأبواليزيد العجمي؛ ص٧-٨ ط١ ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة .

[2] السابق ص١٩

[3] في التصوف الإسلامي ، ص٢٠

إن التصوف الإسلامي مرجعيته إسلامية خالصة، ومفرداته مبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالتزكية والزهد والتوكل والذكر والمحاسبة والتوبة والتذوق؛ ركائز أساسية في التصوف وقد حث عليها القرآن الكريم وبينت معالمها السنة النبوية، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٣]

والأدب الصوفي يقوم على المعاني الواردة في الآيات الكريمة السابقة. كذلك مفهوم الانفاق وما يتعلق به من ركائز التصوف ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١-٢٦٣].

كذلك فإن النظر الصوفي للعبادة يتجاوز الأشكال إلى المعاني ولا يقف عند العبادة بل ينظر إلى المعبود "فلا توقفنا مع رؤية الطاعات والدعوات ولا النظر إلى شيء من كافة المخلوقات؛ بل أخرجنا إليك راضين بك ومؤثرين لك على كل شيء "[1]. " وذوقنا يارب حلاوة الإيمان بك وصف سرائرنا حتى ندرك حلاوة القرآن"[2].

المحور الثاني: التصوف والسياسة:

ذكرنا أن التصوف اهتمامه الأساسي يتعلق بإصلاح الفرد تربية وتهذيبا وسلوكا من خلال التزكية؛ والسياسة عند الصوفية هي استصلاح الخلق بالإرشاد إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل، على الخاصة والعامة، في ظواهرهم وبواطنهم، وتكون من الأنبياء وتسمى سياسة مطلقة، أي كاملة من غير إفراط ولا تفريط، لجميع الخلق وفي كل الأحوال، ومن

[1] راتب الإمام المهدي مجموعة أدعية وأذكار تقرأ عقب صلاة الفجر وصلاة العصر

[2] السابق.

العلماء- ورثة الأنبياء حقا – على الخاصة في بواطنهم لا غير، أي لا تكون على العامة، لأن إصلاحهم مبني على القهر والسلطان، ولذلك لا تكون على الخاصة في ظواهرهم، وتسمي بالنسبة لهم سياسة نفسية[1].

هنالك عوامل كثيرة تسبب في عدم اشتغال بعض المتصوفة بالسياسة وابتعادهم عنها. فهم يهتمون عموما بالصراع الداخلي للإنسان وبالخلاص الذاتي وليس بالصراع الذي ينشأ بين أفراد المجتمع، وتوجههم العام هو أن يهتم الفرد بعيوب نفسه قبل أن يهتم بعيوب الآخرين، وإذا حدث ذلك فإن المجتمع سينصلح بصلاح أفراده، ومن أسباب ابتعاد المتصوفة عن السياسة والزهد فيها أن الشيوخ لهم مكانة عند أتباعهم وعند أفراد المجتمع عموما، فالناس يحبونهم ولا يتعرضون عادة لنقدهم، لكن دخولهم في السياسة واتخاذهم لقرارات قد لا تعجب كثيرا من قطاعات المجتمع قد يعرضهم للنقد[2]. ومع ذلك فإن كثيرا من المتصوفة لم يهملوا الإصلاح الاجتماعي بل وظفوا طاقات مريديهم وتلاميذهم في مجال أوسع؛ فتصدوا لظلم الحكام وقاوموا الاستعمار وحملوا راية الجهاد حتى أقاموا دولا تحكم بالإسلام. لأن السياسة فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد – كما يقول ابن عقيل- والسياسة نوعان: عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي من الشريعة؛ ومدنية من أقسام الحكمة العملية، والسياسة تلزم الصوفي الشيخ مع المريدين والطالبين، وهي سياسة نفسية، وتلزم الإخوان مع بعضهم، وتلزم الصوفية عموما مع الناس[3]وعلى ذلك فإن الصوفية مارسوا السياسة بهذا المفهوم الشرعي من عدة زوايا نلخصها في الآتي:

أولا: نصح الحكام: قام عدد من شيوخ الطرق الصوفية بواجب النصح للحكام التزاما بالتوجيه النبوي" الدين النصيحة" قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

[1] أنظر: الموسوعة الصوفية، ص١٠٤٦

[2] التصوف وأثره في المجتمع،ص٢٧٨-٢٧٩

[3] الموسوعة الصوفية، ص١٠٤٦

وعامتهم"[1]. فالصوفية بحكم مكانتهم الدينية والاجتماعية صار لهم مريدون وأتباع مما أكسبهم شرعية قيادية في المجتمع وهذا يفرض عليهم أن يكونوا حراسا لمصالح المنتسبين إليهم، وقد يعتدي عليها الحكام، فيقوم المتصوفة بنصح الحكام وحثهم على رفع المظالم عن الناس. ويرى أحمد أمين أن الأمراء عبر التاريخ كانوا يقفون في صف الفقهاء ضد المتصوفة إذا نشأ بينهما نزاع؛ وأرجع ذلك لسببين؛ الأول: أن التعاليم الصوفية تدعو إلى الزهد، وعدم الإهتمام بالدنيا، ولو عمت الفكرة الناس ما صلح ملك، ولا وجد من يعمل. والثاني: أن الصوفية الحقيقيين إنما يخضعون لله وحده، ويؤمنون تمام الإيمان بأن لا إله إلا الله فلا خضوع لملك أو أمير، وهذا يغضب ذوي السلطان عادة[2].

وخصص الإمام الغزالي في سفره المشهور- إحياء علوم الدين- بابا في أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر،ذكر فيه نماذج مشرفة لمواقف شيوخ التصوف وهم يناصحون الحكام دون أن يخشوا في الحق لومة لائم.

وكان عدد من الخلفاء يستجيبون للنصيحة لصدق من صدرت عنهم، ومن ذلك موقف ذي النون المصري مع المتوكل حيث وشي به لدى الخليفة فاستحضره من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده إلى مصر مكرما[3]

ثانيا: الشفاعة لدى الحكام : من المهام التي يقوم بها شيوخ التصوف توسطهم لدى الحكام والمسئولين، حيث يقصدهم العامة لمكانتهم ليشفعوا لهم لدى المسئولين، وما كانوا يبخلون بوقتهم ولا جاههم في القيام بأي عمل يرفع الضيم عن الناس، روي أن شقيق

---

[1] رواه مسلم حديث رقم٥٥ المنهاج بشرح صحيح مسلم ابن الحجاج للنووي ص١٦١دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت –لبنان . ط١١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

[2] ظهر الإسلام المجلد الأول لأحمد أمين ، ص٣٩٥الدار المصرية اللبنانية، ط١شعبان١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م القاهرة

[3] الرسالة القشيرية في علم التصوف، تأليف عبدالكريم بن هوزان القشيري النيسابوري؛ ص٤٠ المكتبة التوفيقية ط٢٠١٥م القاهرة

البلخي شفع لرجل لدي علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ فقبل شفاعته[1]. بل بلغت مكانة المتصوفة في العصر المملوكي أن رفعت الكلفة بينهم وبين السلاطين، ورُوي أن الجارحي – شيخ المتصوفين في العصر المملوكي- بلغ شأنا لدرجة أن الشكوى كانت ترفع إليه وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم بالجلوس[2]

ثالثا: جهاد الأعداء و مقاومة الإستعمار: لم يقف دور التصوف عند جهاد النفس وإنما اشتركوا في الجهاد ضد الأعداء ومقاومة الاستعمار، فالصوفية هم أهل التربية العملية، ولذلك تجدهم من أكثر الناس عملاً بالآيات الكثيرة والأحاديث الشهيرة التي تبين فضل الرباط والجهاد، وهم خواص أهل السنة، كما يقرر الإمام القشيري في رسالته، وإن خلت مصنفاتهم من الإشارة إلى موضوع الجهاد الحربي إلا ماندر، كقول أبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ): "…. ولذلك صار الجهاد أفضل لأنه حقيقة الزهد في الدنيا."

وقريب من ذلك ماجاء في كتاب الإحياء للإمام الغزالي: "… إن المنافقين كرهوا القتال، خوفاً من الموت، أما الزاهدون المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص" وفي موطن آخر يقول حجة الإسلام : "ولقد عظم الخوف من أمر الخاتمة فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة."

أما ابن عربي وهو شيخ الصوفية الأكبر فيقول في الفتوحات، متحدثاً عن أصناف الأولياء: "… ومنهم السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله، لأن المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران، لا يكون فيها ذاكر لله من البشر، ولذلك لزم بعض العارفين السياحة صدقةً منهم على البيداء التي لا يطرقها إلا أمثالهم، والجهاد في أرض الكفر التي لا يوحّد الله تعالى فيها، فكان السياحة بالجهاد، أفضل من السياحة بغير الجهاد…". والملاحظ أنه عندما ظهر التصوف رافقته مجموعة من الفضائل المستمدة من الفتوة، وفي مقدمتها: الشجاعة والتضحية.

---

[1] الرسالة القشيرية ص٥٨

[2] التصوف وأثره في المجتمع. ص٢٨٩

يقول العارف سهل التستري (ت ٢٧٣هـ): "أصل هذا الأمر الصدق والسخاء والشجاعة."

ويذكر غيره: "الأساس الأول للصوفي هو تقوية الصلة بالله، والشجاعة بالقتال للجهاد.

وقد جاء رجل إلى رويم البغدادي أحد كبار العارفين (ت ٣٠٣ هـ)، وقال له: "أوصني، فقال: أقل مافي هذا الأمر بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

وعلق على ذلك الشيخ الهجويري (ت ٤٦٥ هـ) في كشف المحجوب شارحـًا: "أعني كل شيء غير هذا هو ترهات، وقد قال تعالى:" ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء."....

وزبدة القول: إن العباد والزهاد ومن بعدهم الصوفية، استنوا لأنفسهم سنة "المرابطة."

فشدوا الرحال إلى ميادين القتال، لوعظ المجاهدين، وتقوية عزائمهم، والمجاهدة معهم. يقول يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨هـ) مشيراً إلى أن من شروط الصوفية السياحة للجهاد:

ومن الدلائل أن تراه مسافراً نحو الجهاد وكل فعل فاضل[1]

رابعا: الاصلاح الاجتماعي: يلعب المرشد دورا أساسيا يتجلى في توجيه القلوب وترقيتها، وأدوار أخرى مرتبطة بالاجتهاد والتجديد في فهم النصوص الشرعية، والحرص الشديد على أداء المؤسسة التربوية التي يرأسها لأدوارها الاجتماعية والتضامنية والإنسانية، فإذا كان المريض يتوجه للمستشار النفسي ويؤدي له تعويضا مقابل كشف ما يكتنزه صدره من آلام باطنية، فالشيخ المربي يسمع ويوجه وينصح، فاتحا بابه لكل الناس بدون مقابل مادي مصرح به، إنه بلا شك مشروع العمران الأخوي، الذي يقوي الرأسمال البشري ويسعى للنهوض بأخلاقيته، لكل هذه الغايات، اكتسب التصوف مشروعية عقلانية، فكرية، دينية وتنموية[2].

---

[1] راجع جهاد الصوفية؛ بحث منشور في موقع الموسوعة الحرة

[2] أنظر: التصوف والسياق المعاصر – الحلول البديلة؛ مقال لعلي يوسفي علوي منشور على موقع قناة الجزيرة

لقد قام المتصوفة بدور كبير في الاصلاح الاجتماعي؛ فالاهتمام باصلاح الفرد أولى خطوات الاصلاح، إذ بالتزكية وطهارة النفس ينصلح الفرد وينعكس ذلك على سلوكه كما ورد في الحديث:" ألا وإن الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدكله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1]. كما أن الزوايا والخلاوي والمجمعات الدينية التي أقامها الصوفية كانت بوتقة ذابت فيها الفوارق الاجتماعية وأصبح الجميع إخوة يربطهم رباط الروح وصاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له جميع الجسد بالسهر والحمى.

ففي مجتمعات الصوفية تنتهي العصبية والعنصرية والاستعلاء بالمال والمنصب، كما تختفي عوامل النزاع والصراع؛ وبالتالي كان للتصوف أثر كبير في الاصلاح الاجتماعي.

خامسا: إقامة دول إسلامية: لم يقف التصوف عند الاصلاح الفردي بل سعى كثير من الصوفية لاصلاح المجتمع وهنالك كثير من قادة التصوف قاموا بتعبئة المجتمع لمواجهة الاستعمار ومقاومة الغزو الثقافي والفكري والسياسي، فاستطاعوا عن طريق الجهاد والاجتهاد والاصلاح الديني أن يطردوا الاستعمار ويواجهوا تحديات العصر باجتهاد جديد وإقامة دول إسلامية تحكم بشرع الله وتقيم قواعد الدين على هدي النبوة؛ ويظهر ذلك جليا في الحركة السنوسية والتجانية والقادرية، ففي غرب أفريقا كانت حركة الشيخ عثمان دان فوديو، وفي شمال أفريقيا حركة الشيخ عبدالقادر الجزائري، وقام الشيخ محمد بن علي السنوسي بنشر الإسلام في صحراء ليبيا وقبائلها؛ وفي السودان أقام الإمام المهدي دولة إسلامية كاملة الدسم لها نظامها التشريعي والاداري والمالي وسياستها الخارجية استكملت هوية السودان الإسلامية.

المحور الثالث: الوسطية والتصوف وضبط العلاقة بين الماديات والروحانيات

التصوف عامل مهم في عالم اليوم الذي طغت فيه الماديات، وانتشرت فيه النزاعات بسبب الفراغ الروحي والخراب الباطني؛ فما نشهده اليوم يعود إلى الطمع وشهوة السلطة والمال وحب السيطرة وكلها نزعات يمكن أن يساهم التصوف في علاجها.

---

[1] رواه البخاري

إن إهمال الجانب الروحي فتح الباب لطغيان الماديات التي جردت الإنسانية من عوامل خيريتها:

ياخادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

إن جهود العلماء والمفكرين والمصلحين تحتاج إلى الاهتمام بجانب التزكية حتى تؤتي أكلها؛ فأمانة التكليف تقتضي الوعي برسالة الإنسان في الحياة والتي قوامها الاستخلاف والتزكية والعمران، إنها جهود يجمعها مصطلح مهم في الإسلام هو مصطلح الإحسان.

الإحسان خلق لا يكون معه تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد تحصيل خدمات منه، أو توصيلها إليه، وإنما جلب صلاح له أو استجلابه منه، ودفع فساد عنه أو استدفاعه به[1]، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ:" إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[2] يقول القرطبي في شرح هذا المعنى:"فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك، والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهدك بإحسانك"[3]ويقول الغزالي: "وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعا، والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان وقد قال تعالى:

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل:٩٠]

[1] الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، د. طه عبدالرحمن، صـ ٢١. نقلا عن القيم الحضارية في الإسلام، صـ١٨٨.

[2] رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح، ١٥٤٨/٣، حديث رقم١٩٥٥.

[3] تفسير القرطبي، ١٠/ ١٦٦.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف:٥٦]ونعني بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه؛ فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم"[1]

فالإحسان في التعامل يؤسس لفقه شغوف باصطناع المعروف بوجه عام، ويؤسس لفقه شغوف بأخلاق الإيثار، وهو فقه يقوم على وجهين ذكرهما الإمام الشاطبي:

الوجه الأول: إسقاط الاستبداد والدخول في المواساة على سواء؛ وذلك بأن يرى العبد غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريبه أو يتيمه، أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندبا أو وجوبا، وأنه قائم في خلق الله بالاصلاح والنظر والتسديد فهو على ذلك كواحد منهم. عن أبي سعيد قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله ﷺ:"من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له." قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في فضل"[2].

الوجه الثاني:الإيثار على النفس، وهو أعرق في إسقاط الحظوظ؛ وذلك أن يترك حظ نفسه لحظ غيره، اعتمادا على صحة اليقين، وإصابة لعين التوكل، وتحملا للمشقة في عون الأخ في الله على المحبة من أجله[3]. وهو من محامد الأخلاق، وزكيات الأعمال، وهو ثابت من فعل رسول الله ﷺ، ومن خلقه المرضي، وقد كان عليه الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح المرسلة، وقالت له خديجة: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منه، وجاءه رجل فسأله فقال: ماعندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه. فقال له عمر: ماكلفك الله ما لاتقدر عليه،فكره النبي ﷺ ذلك؛ فقال رجل من

---

[1] إحياء علوم الدين، كتاب الكسب والمعاش، ٢/ ٧٩. وقد ذكر الإمام الغزالي، رحمه الله ، أن الإحسان ينال بواحد من ستة أمور، ثم ذهب يشرحها، وهو كلام مهم ونافع، القيم الحضارية في الإسلام ؛ صـ١٨٨.

[2] رواه مسلم، كتاب: اللقطة، باب: استحباب المواساة بفضول المال، ٣/ ١٣٥٤، حديث رقم١٢٧٨.

[3] الموافقات:٢/ ٣٥٣-٣٥٥ بتصرف.

الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا، فتبسم النبي ﷺ وعرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت" ذكره الترمذي[1].

وهذا اللون من أخلاق الإيثار؛ يعين عليه ثلاثة أشياء، ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين:

الأول: تعظيم الحقوق؛ فإن عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه أن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطا لأدائها.

الثاني: مقت الشح؛ فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق؛ وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق[2].

فالتصوف بهذا المفهوم الإحساني هو عين الوسطية التي جاء بها الإسلام؛ لأنه يحقق التوازن بين الروحانيات والماديات، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص:٧٧]

إن الإحسان يؤطر حركة المسلم في علاقته بالآخر؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل:٩٠]. قال العلماء: إن هذه الآية الشريفة، أجمع آية في القرآن، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية، لكفت في كونه تبيانا لكل شيء وهدى[3]، ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية على المشركين؛ قال فصحاؤهم: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن

---

[1] الموافقات، ٢/ ٣٥٥.

[2] مدارج السالكين؛ ١/ ٢٩٩.

[3] قلائد العقيان في قوله تعالى:"إن الله يأمر بالعدل والإحسان" للعلامة الشيخ مرعي المقدسي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠٠٥م صـ٧٥.

الأعمال[1]، ويقول سلطان العلماء العز بن عبدالسلام: " وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها، والزجر عن المفاسد بأسرها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].فإن الألف واللام في العدل والإحسان للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴿٩٠﴾ ﴾ ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان. والعدل هو التسوية والإنصاف، والإحسان إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة. وكذلك الألف واللام في الفحشاء والمنكر والبغي عامة مستغرقة لأنواع الفواحش، ولما يذكر من الأقوال والأعمال[2].

الخاتمة

إن التصوف بمفهومه الشرعي يحتاج له كل إنسان لتزكية نفسه وضبط حركة حياته، والمنتدى العالمي للوسطية تبنى منهجا وسطا يجمع الحق الذي تفرق في المدارس الإسلامية؛ حيث يضم فقه التوازن بين الأصل والعصر، إلى وعي المفكرين وتأصيل الأثريين إلى تزكية أهل التصوف وبذلك يتكامل مشروع الوسطية ليقدم الإسلام في صورته الناصعة بعيد عن شطط الغلاة وتفريط المستلبين.قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]

---

(1) السابق، صـ٧٧.

(2) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٢/ ١٦١. هذا الفرع مستفاد من كتاب : القيم الحضارية في الإسلام ، نحو حداثة إنسانية جديدة، لمؤلفه: د. محمد عبدالفتاح الخطيب. صـ١٧٩-١٩٢ بتصرف.

التصوف الإسلامي
التجلي الروحاني والبعد المادي والأداء السياسي

د. محمد زاهد جول

مقدمة

ينطوي التصوف الإسلامي على قدرة استطرادية تأويلية فائقة، وتحققات واقعية متعددة، وإمكانات نظرية واسعة، إذ يقع التصوف في سياق الحركات الاجتماعية التي تخضع لديناميكيات سسيولوجيا التحولات، فالتصوف ظاهرة دينية اجتماعية تاريخية معقدة ومركبة، احتوى في بنيته ومكوناته وممارساته على مدارس وتوجهات نظرية وعملية عديدة، ورغم أن التصوف اشتهر بأبعاده وتجلياته الروحانية عند المتأخرين، بلغت حد اعتباره ثورة روحية لدى المستشرقين، كما سمى جوزيبى سكاتولين كتابه "التجليات الروحية فى الإسلام"، ومن تأثر بهذا التيار الاستشراقي من العرب المعاصرين، حيث عَنْوَن محمد مصطفى حلمى، كتابه فى التصوف بـ"الحياة الروحية فى الإسلام"[1]، وكذلك أبو العلا عفيفي الذي وسم كتابه بـ "التصوف، الثورة الروحية فى الإسلام"[2]، إلا أن التصوف الإسلامي لم ينفصل مطلقا عبر تشكلاته الإيديولوجية وتحققاته التاريخية عن البعد المادي الاجتماعي، وطبعت ممارساته الأداءات السياسية.

وسوف نقوم في هذه الورقة بفحص التصوف كإيديولوجة دينية نظرية، وممارسة تاريخية، ومحاولة الكشف عن جملة من الأساطير التي حيكت حول التصوف، وفي مقدمتها الاعتقاد أن التصوف ظاهرة ثورية روحانية فردية فقط، لا صلة لها بالواقع الاجتماعي المادي، ولا اتصال لها بالممارسات والأداءات السياسية، ثم التعريج على أسطورة عودة

---

[1] محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية فى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ط٢.

[2] أبو العلا عفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، القاهرة، ١٩٦٣.

التصوف بافتراض أنه كان غائبا، وهي أساطير جرى التعامل معها كمسلمات دون فحصها، وتبيّن مصادرها المؤسسة وأهدافها ومراميها.

التجلي الروحاني

إن حصر وقصر التصوف على المجال الروحاني من الأساطير الاستشراقية الحديثة، التي قامت على التعريف العلماني للدين بعدّه ظاهرة فردية تنشأ عن علاقة تقوم على الدخول في نسق رمزي مع قوى متعالية، وكونه اعتقادا مشوها عن الطبيعة الحقة للعالم وللقوى البشرية، وقد بيّن طلال أسد أن مفهوم الدين كاعتقاد هو نفسه جزء من الإطار العلماني المعياري الذي لا تستثمر فيه مادية الدين الخاصة(1)، وقد أخذت أسطورة فردانية وروحانية التصوف بالتبدد في الدراسات الحديثة، فحسب نايل جرين فإنه وفقا لفهم الباحثين الأوروبيِّين والأمريكيين في أوائل القرن العشرين، اعتمدت فكرة "التصوف" على تصوُّر للدين؛ عالميٍّ من الناحية الفكرية، وحداثيٍّ من الناحية الزمنية، وبروتستانتيٍّ من الناحية الثقافية. كانت سلطةُ التجربة المباشِرة التي لا وسيطَ فيها للفرد المُنعزِل تُعتبَر منبعَ التدين الحقيقي في كل الثقافات وكل الفترات الزمنية، وعلى نسق بروتستانتي مشابه، كان "الدين" نفسه يعتبر فئة منفصلة على نحو صائب، (أو على نحوٍ مفضَّل على أقل تقدير) عن عالم السياسة الفاسد. وعندما طبق هذان النموذجان على دراسة الإسلام، كان الصوفي النموذجي في رأي كثير من الباحثين هو النقيض التام للمؤسَّسة الحاكمة الإسلامية الملتزمة بالشريعة، سواء أكان يعيش في عزلة هادئة بعيدا عن شئون الدنيا، أم كان يقود ثورات تنتهي باستشهاد حماسيٍّ. إلا أنه على النقيض من فكرة الغرب عن التصوف، فقد كانت جوانبُ كثيرةٌ من الصوفية جماعيةً وعلنية، وليست فرديةً وخاصة(2).

---

(1) انظر: صبا محمود، الاختلاف الديني في عصر علماني: تقرير حول الأقلية، ترجمة كريم محمد، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠١٨، ص ٥٢.

(2) انظر: نايل جرين، الصوفية: نشأتها وتاريخها، ترجمة صفية مختار، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص ٢٤.

ومن المغالطات الحديثة الشائعة التي اعتمدت على أسطورة الانفصال بين الروحاني والمادي والسياسي، الادعاء أن التصوف يقوم على استقالة العقل والانسحاب من العالم، باعتباره يستند ابستمولوجيا إلى مبادئ "العرفان"[1]، وقد بيّن الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن تهافت هذه الأسطورة التي اعتمدت على مقاربات تجزيئية للتراث، والتي اشتهر بها المفكر المغربي محمد عابد الجابري، وقد انبرى طه عبد الرحمن لنقض هذه الأسطورة من خلال منهج عقلاني يقوم على رؤية تكاملية للتراث مقابل النظرة التجزيئية التي أسقطت فيها مفاهيم منقولة من المجال التداولي الغربي دون مراعاة لمقتضيات المجال التداولي العربي الإسلامي، التي تشمل العقيدة واللغة والمعرفة، إذ تستند النظرة التجزيئية للجابري إلى تقسيم الأنظمة المعرفية التي اختص بها التراث العربي الإسلامي إلى ثلاثة أنظمة معرفية هي: "البرهان"، و"البيان"، و"العرفان"، وكأنهذه الأنظمة جزر معرفية منفصلة، دون مراعاة المحدد التداولي، والمحدد التداخلي، والمحدد التقريبي للتراث الإسلامي، وإذا نظرنا إلى أشهر ممثلي الثقافة العربية الإسلامية، نجد أن تشكلاتهم الهوياتية المعرفية والعملية متداخلة دون فصام، إذ لا يكاد يخلو أحد من علماء الإسلام على اختلاف اشتغالاتهم الفلسفية والكلامية والأصولية والفقهية من جانب عرفاني صوفي، من ابن سينا إلى الشاطبي، فابن خلدون، وصولا لابن تيمية، فضلا عن غيرهم.

إن التقسيم الثلاثي لأنظمة المعرفة في التراث عند الجابري وقع في مغالطة منطقية، حسب طه عبد الرحمن، تسمى بمغالطة "ازدواج المعايير"، وتتجلى في استخدام معايير متعارضة في بناء التقسيم وما يتعلق به من ترتيب، ذلك أن كل نظام ينتمي إلى إطار مقولي مختلف؛ فالبرهان مقولة متعلقة بالصورة الاستدلالية العقلية، بينما البيان مقولة متعلقة بالصيغة اللفظية، والعرفان مقولة متعلقة بالمضمون المعرفي، ذلك أن "التقسيم الثلاثي: "البرهان" و"البيان" و"العرفان" تقسيم فاسد، ودليل فساده ازدواج المعايير المتبعة في

[1] انظر:محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

وضعه"، وبهذا، فإن نقد طه عبد الرحمن لمشروع الجابري أطّرته الرؤية التداولية للتراث، والتي تأسست على مقتضيات المجال التداولي المتميز عن غيره من المجالات بأوصاف خاصة، ومنضبط بقواعد محددة يؤدي الإخلال بها الى آفات تضر بهذه الممارسة سواء على مستوى التأصيل أو مستوى التقريب. كما تجلت هذه الرؤية التداولية من خلال التقويم الشمولي التكاملي للتراث الذي يجمع بين الاشتغال بمضامين النص التراثي، وبين الآليات المنطقية واللغوية التي أنتجت هذه المضامين التراثية[1].

إن النظرة التجزيئية للتراث الإسلامي عموما والتراث الصوفي خصوصا، جعلت من التصوف هدفا مفضلا للنقد والتشويه، فقد تعرض التصوف في سياق جدل العلاقة بين التراث والحداثة لهجوم كاسح من ممثلي الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة: الشيخ والليبرالي وداعية التقنية، حسب عبدالله العروي في مؤلفه "الإيديولوجيا العربية المعاصرة"، حيث حدّد العروي المسار التاريخي الغربي باعتباره السبيل الوحيد للوصول إلى الحداثة التي دشنها عصر التنوير الأوروبي[2]، حيث باتت مفاهيم مثل "العقل"و"العقلانية"، و"العلم"، و"العلموية"، و"العلمانية"، و"النور" و"الظلام"، حاكمة في دراسة التصوف، الذي بات يكافئ "الخرافة" و"السحر" و"الظلامية"، وقد سلّم ممثلو الثقافة العربية بضرورة الخروج من تقاليد العالم المسحور حسب ماكس فيبر للدخول في أفق الحداثة والعقلانية، دون الالتفات إلى الأدبيات التي تنظر إلى التنوير باعتباره أسطورة كما يرى ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر.

لا جدال أن الانتقادات الحادة للتصوف باعتباره بنية سحرية خرافية تناهض العلم والواقع، استندت في تصوراتها إلى عقل الحداثة، وقد بات معلوما أنه عقل مخصوص يقوم على التجريد، وقد كشف طه عبد الرحمن عبر نقده للعقل المجرد طبيعته القاصرة، في سياق

[1] انظر: طه عبدالرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٥٥.

[2] انظر: عبدالله العروي، الإيديولوجيا العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦.

نقده للنظام العلمي التقني للحداثة والعولمة، فا العقلانية التي انتصر لها دعاة الحداثة تكافئ "العقل المجرد" وهو العقل الوضعي والعقل التاريخي الذي لا يملك اليقين بنفع لا ضرر فيه، ولا بصواب لا خطأ معه، وقد وسع طه عبد الرحمن من مفهوم العقل الذي قصرته الحداثة على العقل "المجرد" ليشمل العقل "المسدد" والعقل "المؤيد" فالعقل فعالية وليس جوهراً، وعمل عبد الرحمن على تفكيك ثنائية الشريعة/ الحقيقة التي شكلت الأساس الذي اختلفت فيه الصوفية مع الفقهاء تاريخيـاً، ذلك أن تبني الفقهاء لمنهج استنباطي في تقرير الأحكام الشرعية وتطبيقها والعمل بمقتضاها لا يتجاوز حدود الظاهر، بينما انتهجت الصوفية مسلكـاً يقوم على البحث عن الباطن مع حفظ الظاهر[١].

مع سيادة أساطير التنوير وتفشي العلموية بصيغتها الوضعانية المتطرفة المولعة بتجزيئ الإنسان والفصل بين المجالات المعرفية، ونفصيل وتجزييء الدوافع والمحركات البشرية، تعرضت الصوفية من قبل ممثلي الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة لعملية تدمير ممنهج لا نظير لها، فقد حُمّل التصوف أسباب التخلف والتأخر والنكوص الداخلي، وأوزار الهزيمة التي تعرضت لها الأمة من قبل الحملات الأوروبية الاستعمارية، وقد عزز من ذلك أن التصوف دخل في طور من الجمود وغياب التجديد، كما أن بعض الطرق الصوفية تعاونت مع الإدارات الكولونيالية الاستعمارية، رغم أن الطرق الصوفية ذاتها من شكل الرافعة الرئيسية لمناهضة ومقاومة الاستعمار، وقد ساعد على رسوخ هذه التصورات النمطية المقولبة المرتبطة بالحهل والخرافة، أن التصوف كان قد دخل في طور من الجمود على الرسوم والطقوس وعبادة الأولياء في سياق من سسيولوجيا التحولات. وهكذا تواطأ مختلف الفرقاء والأضداد من الليبراليين والقوميين والسلفيين ثم تبعهم اليساريين على حمل معاول هدم التصوف ونقض بنيانه المتخيل، بحجة إنقاذ العقل وإحياء العقلانية، دون فحص لماهية العقل والعقلانية، فالشيخ السلفي نظر إلى الصوفية كمؤسسة وافدة هدامة تروم نشر البدع والخرافات والشرك والكفر لتقويض الإسلام والعالم الإسلامي من

---

[١] انظر: طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

الداخل، وهو ما أكد عليه الليبرالي وداعية التقنية؛ وهكذا أصبح التصوف يكافئ "العرفان" و"الغنوصية" والاستقالة والانسحاب من العالم، وهي نظرة متلبسة بالقراءة الاستشراقية والحداثية للدين عموما، وللإسلام خصوصا، والتصوف بصورة أخص، الذي أعيد تأويله وتمثيله كنقيض للحداثة والغرب، وتأسس على أسطورة واهية تعتبر التصوف ظاهرة روحية فردية مجردة عن الأبعاد المادية الاجتماعية والسياسية.

البعد المادي الاجتماعي

إن الأبعاد المادية الاجتماعية للتصوف لا تقل وضوحا من التجليات الروحانية، على فرض إمكانية القصل بين الروحاني والمادي خارج الحدود الإجرائية، ذلك أن الأنسان روح وجسد، فالتصوف الإسلامي سرعان ما تحول وتطور من ممارسة فردية إلى ظاهرة اجتماعية حركية، أسست لهيكلية تنظيمية هيراركية معقدة، من خلال إنشاء الطرق والزوايا والرباطات، وشاركت في أكثر التجليات المادية تحققا في العالم، في صورة "الجهاد" الخارجي، فضلا عن "الاحتساب" الداخلي، ذلك أن التصوف نتاج الإسلام ذاته، إذ يعتبر العامل الدبني حاسما في نشأة التصوف الإسلامي استنادا إلى المصادر الإسلامية الأصيلة من الكتاب والسنة، فقد ظهرت نواته الأولى لدى الصحابة من خلال التيار التعبدي الزهدي، إلا أن أسباب ظهوره تعززت بجملة من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية، فالظروف التي عايشها الإسلام المبكر والتي تمثلت بالفوضى السياسية والنزاع على السلطة والفتن والحروب الداخلية، عملت على شيوع حالة من القلق الروحي، والإحساس بالظلم الاجتماعي، والتذمر من انتشار التفاوت الطبقي بين مترف ومعدم، الأمر الذي أدى إلى تنامي تيار الزهد، فبحسب نيكلسون تعددت عوامل نشأة التصوف فمعاناة المسلمين من ظلم الحكام واستبدادهم بعث على الميل إلى الزهد كأداة للاحتجاج والثورة الروحية على السلطة[1]،وبهذا اتخذ مسار التشكل الصوفي في بداياته مظهرا زهديا تعبديا أخلاقيا، لكنه سرعان ما تحول إلى مدارس وتيارات وحركات اجتماعية.

[1] انظر: رينولد نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، تعرببب أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٤٦.

لقد تشكّل التيار الزهدي التعبدي الأخلاقي بقوة بفعل العامل السياسي الاجتماعي في الإسلام، كخيار فردي يسعى لإصلاح الذات ابتداءا تمهيدا لإصلاح المجتمع المثقل بعسف السلطة الحاكمة، وتعبيرا عن العودة إلى القيم الإسلامية الفاضلة، فالزهد شكّل المقدمة الضرورية لقيام التصوف المطبوع بالعزلة وقطع العلائق مع البشر والركون إلى الدنيا والإقبال على الله والآخرة، وبهذا تبلورت طبقة من الزهاد في المجتمع الإسلامي تكاثرت تاريخيا، وأصبحت تيارا منظما في البصرة والكوفة والشام ونيسابور[١].

شهد التصوف في سياق التحول التاريخي مسارات ومسالك متعددة، فالطبيعة الفردية للتصوف كتجربة شخصية نخبوية روحانية تسعى للتقرب إلى الله وقطع العلائق مع الناس هيمنت على مراحل نشأته المبكرة في القرن الثاني الهجري، ثم تحول إلى ظاهرة اجتماعية منذ القرن الخامس الهجري، ثم دخل في الفترة بين القرنين السادس إلى الحادي عشر الهجريين مرحلة النفوذ والانتشار، وتحول مع دخول القرن الحادي عشر الهجري تصوفا طرقيا ثم أصبح ظاهرة شعبية.

لقد أسست هذه الطرق زوايا كانت ملاذًا وملجأ ومحضن تربية وتعليم لأتباعها ومريديها، فالزاوية عبارة عن مؤسسة تعليمية تربوية تهذيبية وتثقيفية للنفوس والعقول والأرواح، كما قامت بتقديم خدمات اجتماعية وأعمال إنسانية كإيواء العجزة والأرامل والأيتام والفقراء والمعوزين والغرباء وأبناء السبيل، وبهذا دافعت الزاوية عن القيم الأخلاقية وحافظت على مقومات الهوية الوطنية وصانت عناصر الشخصية العربية الإسلامية في العهدين العثماني والاستعماري، ووقفت أمام حملات الغزو الثقافي والتبشيري[٢]، وغدت قوة روحية واقتصادية واجتماعية، يفد إليها الحجاج والزوار ليجدوا المأوى والغطاء ومكانًا للعبادة والتأمل، وليستمعوا إلى النصيحة والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

---

[١] انظر: حسن أبو هنية، الطرق الصوفية، دوروب الله الروحية، التكيف والتجديد في سياق التحديث، مؤسسة فريدريش ايبرت، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ٥٧.

[٢] عبد القادر الشطي: المصدر السابق، ص ٣١٠.

[٣] جان شوفليي، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، بيروت، طبعة ١٩٩٩م، ص ٧٣

إذا كانت الطرق والزوايا تكشف عن حركية اجتماعية نشطة، فإن مشاركة الزهاد والمتصوفة في الجهاد، بصعب حصره وتتبعه، إذ يروي ابن الجوزي عن أئمة وقادة الصوفية الذين رابطوا في المدن وعلى الثغور، وانضموا إلى المحاربين في المعارك وخفروا ممرات الجبال وأعالي القلاع. وتشمل الأمثلة عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م) الذي ضمت إنجازاته العسكرية المرابطة مرات عدة على الحدود ومنازلة محاربين معروفين للأعداء وذلك كله بينما عمل على تأليف "كتاب الجهاد" الذي يكون الأقدم بين أعمال تالية كثيرة مشابهة[1]

يجادل نوت إس فيكور في مقاله بعنوان "الصوفية والاستعمار"، بأن الصوفية، مثل عموم المسلمين، كانت ردود أفعالهم متباينة تجاه قدوم القوات الأوروبية التي سيطرت على أراضي المسلمين. فاستخدمت معظم الطرق القوة دفاعا عن الإسلام، أو عن التبعية السياسية للإمبراطورية العثمانية، أو عن الموارد البشرية والمالية والمادية. وتعتبر أي قاعدة تعميمية حول الصوفية على أنها طيعة أو متمردة (عنيفة)، كما قد تصنفها المصادر الفرنسية، مضللة تماما كتصور الصوفية على أنها غير-عنيفة في المطلق في السياسات الغربية والسياسات الخارجية الإقليمية. ويفحص فيكور العديد من الأمثلة للصوفية في مواجهة السلطات الاستعمارية. فكل من مقاومة القادرية للاحتلال الفرنسي في غربي ووسط الجزائر بين عامي ١٨٣٢ و١٨٤٧، وبنياتهم السياسية القائمة قد شرع فيها على أساس الشرعية القبلية والروحية لوالد أمير المؤمنين عبد القادر الذي قاد الجهاد بصفته 'أميرا للمؤمنين[2].

الأداء والاستثمار السياسي

أثارت هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التي استهدفت الولايات المتحدة الأمريكية، ونفذها تنظيم القاعدة بإيديولوجيته السلفية الجهادية الراديكالية العنيفة، النظر في

[1] انظر: جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص ٧٦٨.

[2] S. Vikor, Knut ٢٠١٧, 'Sufism and Colonialism', Cambridge University Library, Downloaded from https:/www.cambridge.org/core. Cornell University Library, p.٢١٥, accessed from: https:/www.cambridge.org/core/terms. Link

مسألة الإسلام والسياسة وموضوعة الاعتدال والتطرف، وقضبة الإرهاب، فحسب أليس فيليبو "منذ أن دارت رحا الحرب على الإرهاب، تم وسم الوهابية على أنها المرادف الأيديولوجي للكراهية وعدم قبول الآخر. وعلى النقيض من ذلك، فقد بذلت جهود كبيرة لتصدير الصوفية على أنها البديل المعتدل، والوسيلة الناجعة لمكافحة الإرهاب في العديد من الدول ذات الأغلبية المسلمة وغيرها. كما برزت الصوفية إلى واجهة دوائر صناعة السياسة الأمريكية كدرع أيديولوجي لمقاومة التطرف والإرهاب، كأداة فعالة للقوة الناعمة الدينية"[1]

لا جدال أن السعي لادماج التصوف كقوة معتدلة في مواجهة التطرف والإرهاب، لا تعدو عن كونها تقع في إطار الاستثمار والتوظيف السياسي المعاصر، لا يلتفت إلى التصوف في مسار تكوينه التاريخي، وبنيته التنظيمية وتشكلاته الإيديولوجية، فحسب أليس فيليبو، فإن نظرة تاريخية سريعة على تسيس الصوفيين ونظرة الغرب إليهم قد تشي بأن هذا النوع من المعالجة المثالية للحركة الصوفية يمكن أن يكون مضللا. ففي وقت ما من تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب لم يكن "الخطر الإسلامي" مرتبطا بالسلفيين الجهاديين، من أمثال أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة أو أبو عمر البغدادي زعيم تنظيم داعش، وإنما بمشايخ الطرق الصوفية الذين قادوا حركة المقاومة ضد القوى الغربية. ففي الحقبة الاستعمارية برزت الصوفية بوضوح كتهديد سافر وخطر داهم على المشروع الإمبريالي الغربي. وكانت الطرق الصوفية التي قادت الجهاد ضد القوى الاستعمارية من الجزائر إلى الهند تشكل مصدرا فجا للبارانويا التي عانى منها القادة الغربيون في المستعمرات[2].

[1] انظر: أليس فيليبو، الصوفية كوسيلة للحرب على الإرهاب: فرص ومخاطر، ترجمة: أحمد بركات، أصوات أون لاين، على الرابط:
http://aswatonline.com/٢٠١٩/٠١/٣١/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٥٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨١٪D٩٪٨A%D٨٪A٩-

[2] المرجع السابق.

في هذا السياق نجد أنفسنا مرة أخرى بمواجهة خلق أساطير جديدة حول التصوف، تشدد على الأساطير القديمة بقصر التصوف في بعده الروحاني دون المادي والسياسي، وتدّعي عودة وحضور التصوف بافتراض أنه كان غائبا، وتتناسى أسطورة "الغياب" بداهة "الحضور" الصوفي كفاعل سياسي اجتماعي على مدى قرون، فالتصوف كان حاضرا دوما منذ تحوله إلى مكون أساسي في التركيبة الاجتماعية، ساهمت بقسط وافر في الجانب الديني والتعليمي والاجتماعي، وتذب للدفاع عن حوزة الدين والبلاد، ثم ما فتئت تضايق السلطة المركزية في حدودها الجغرافية والسياسية، ورغم الإقرار بإمكانية رصد مؤشرات الصحوة الصوفية اليوم، فإن المقاربة الأداتية تظل مع ذلك عاجزة عن تقديم الإطار النظري والتاريخي الملائم لفهم وتحليل ديناميتها. فمن غير المعقول أن نفسر كل هذا "الحراك" الصوفي، وفي أبعاده المختلفة، بمجرد توظيف أو بالأحرى "تحريك" للفاعل الصوفي من طرف الدولة؛ خاصة وأن مثل هذا التصور هو ما جعل الإشكالية تضل محصورة – لدى الكثيرين – في حدود أسئلة العودة ومفارقاتها، فنحن هنا بصدد إشكالية أعقد وأشمل، ولعل الأمر يتعلق بسؤال العلاقة بين التصوف والمجتمع في بعديها التاريخي والأنثروبولوجي، فمن الناحية التاريخية، نجد بأن التصوف كمنظومة دينية وكحقل لممارسات اجتماعية، ومنذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لم ينسحب كلية من مجالات الفعل والتأثير، سواء على مستوى الحياة الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية، وقد كان ذلك ولا يزال – بشكل من الأشكال- سواء برعاية الدولة وتدخلها (في إطار نوع من الضبط والاستثمار السياسيين)، أو من غيرها وفي استقلالية عنها، أو في صراع وتنافس معها[1]

[1] د. محمد جحاح ، التصوف وأسئلة العودة: في سوسيولوجيا الحراك الصوفي بالمغرب، موقع انتروبوس، على الرابط:
http://www.aranthropos.com/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪AA%D٨٪B٥٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨١-%D٩٪٨٨٪D٨٪A٣٪D٨٪B٣٪D٨٪A٦٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٩-

لم يقتص الحضور الصوفي كأحد الفاعلين في السياسة والاجتماع على مدى قرون وادماجه في بنية الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري، بل أصبح الإيديولوجية السياسية المعتمدة لإمارات ودول وإمبراطوريات إسلامية متعاقبة، وصولا إلى الدولة العثمانية، وشكل القوة الرئيسة المناهضة للإمبرياليات الاستعمارية الأوروبية، إبان الحقبة الكولونيالية، وعقب أفول الحقبة الكولينيالية وتحقيق الاستقلال وقيام الدولة الوطنية في العالم العربي عمدت معظم الأنظمة القطرية العربية والإسلامية على اختلاف منظوماتها السياسية والثقافية على استدخال الصوفية في أجهزتها الأيديولوجية، وعملت على دعمها وإسنادها ومأسستها، وذلك لتوظيفها في مواجهة حركات الإسلام السياسي والحركي الصاعدة و لتثبيت شرعيتها[1]، وحسب الباحث الفرنسي إريك جيوفروي المختص في الصوفية، فـ:"إننا نجد أن الأنظمة العربية عملت على إدماج الصوفية في الحكم بهدف محاربة الظاهرة الإسلامية فوزير الأوقاف المغربي أحمد التوفيق صوفي كما أن الشيخ أحمد الطيب في مصر – وهو خلوتي – أصبح رئيس جامعة الأزهر بعد أن كان مفيتا للديار المصرية وفي الجزائر نجد أن بوتفليقة قريب جدا من الصوفية وهو ما برز في حملته الأخيرة"[2]

أخذت العلاقة بين الطرق الصوفية والأنظمة العربية والعالمية مداها الأقصى عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فقد كشفت الهجمات على مبنى التجارة العالمي والبنتاغون في نيويورك وواشنطن عن تورط أيديولوجية سلفية جهادية عربية، الأمر الذي حمل الإدارة الأمريكية على تبني سياسة "الحرب على الإرهاب"، وفي إطارها الشمولي

---

[1] عمل جمال عبد الناصر على استدخال الصوفية عقب ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ ، في سياق مواجهة الإخوان المسلمين، وسار على نهجه أنور السادات ثم حسني مبارك، لمزيد من التفصيل انظر: د. عمار علي حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، دار العين، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص ١٧٩ ـ ١٨٥.

[2] مستشرق فرنسي، الصوفية هي الحل، على الرابط:

http://islamyun.net/index.php?option=com_k٢&view=item&id=٤٥

تبنت حرب أفكار تستند إلى رعاية "إسلام معتدل" ووجدت ضالتها لدى الطرق الصوفية، وعكفت مراكز الدراسات ومخازن الأفكار على عقد مؤتمرات وإصدار دراسات والقيام بعمليات تشبيك واسعة مع الطرق الصوفية بالتعاون والتنسيق مع الأنظمة العربية الحاكمة.

إن عملية إدماج التصوف واستثماره وتوظيفة سياسيا، تضاعفت بعد الانتفاضات الثورية التي اجتاحت العالم العربي بداية ٢٠١١، والتي جلبت معها حركات الإسلام السياسي، ففي هذا السياق اختلف سلوك الطرق الصوفية وموقفها من الثورات الجارية في العالم العربي، حيث تبنت بعض الطرق تقييما سلبا تجاه الثورات العربية، وتراوحت مواقف الطرق الصوفية تجاه الثورات بين المشاركة أو الصمت أو الإدانة.

خاتمة

لا جدال أننا نشهد اليوم تحولا وتطورا إيجابيا في دراسات التصوف، أخذ ينعكس بقوة بصورة جلية على نظرة المجتمع تجاه التصوف، إذ بدأت الصورة النمطية السلبية للتصوف بالتبدد، وتم نقض جملة من الأساطير الاستشراقية والحداثوية التي أشيعت حول التصوف باعتباره ظاهرة فردانية وروحانية، لا صبة لها بالمحتمع والسياسة والدولة، وبات جليا أن التصوف الإسلامي جزء أصيل من التقليد الإسلامي، ينطوي على قدرة استطرادية تأويلية فائقة، وتحققات واقعية متعددة، وإمكانات نظرية واسعة، إذ يقع التصوف في سياق الحركات الاجتماعية التي تخضع لديناميكيات سسيولوجيا التحولات، فالتصوف ظاهرة دينية اجتماعية تاريخية معقدة ومركبة، احتوى في بنيته ومكوناته وممارساته على مدارس وتوجهات نظرية وعملية عديدة، فالتصوف الإسلامي لم ينفصل مطلقا عبر تشكلاته الإيديولوجية وتحققاته التاريخية عن البعد المادي الاجتماعي، وطبعت ممارساته الأداءات السياسية.

وقد تم إزاحة أسطورة "عودة" التصوف التي افترضت "غيابه"، فقد بدا واضحا أن التصوف جزء من ثقافة المجتمع العربي الإسلامي، وكان حاضرا دوما في بنية السلطة والدولة تاريخيا، وفاعلا أساسيا في مناهضة ومقاومة الإمبريالية الكولونيالية الاستعمارية،

ومستدخلا في أجهزة الدولة الوطنية العربية والإسلامية، كما تبددت أسطورة قولبة وتنميط التصوف باعتبارها بنية جوهرانية سكونية غير قابلة للتطور والتحديث، وباتت النظرة التعددية الاختلافية للتصوف رائجة، فقد بات واضحا أن التصوف تقليد يملك طاقة استطرادية وقوة تمثيلية كبيرة، ويتحقق في توجهات وتيارات ومدارس وحركات شديدة التنوع والتباين والاختلاف.

لقد جرت عمليات إعادة تقييم للتصوف عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، باعتباره قوة معتدلة في مواجهة التطرف العنبف، وبينما يبدو إضفاء النزعة المثالية على الصوفية في السياسة العامة أمرا جيدا على المستوى النظري، وجذابا للقوى الغربية، إلا أنه قد ينطوي على آثار عكسية في سياق تقويض العنف، وربما أسهمت المبادرات الصوفية في إذكاء النزوع الراديكالي الذي انطلقت لمواجهته، ولا جدال أن ربط التصوف بقوى إمبريالية عالمية، وأنظمة سطوية محلية، يلحق ضررا بالغا بالتصوف على المديين البعيد والقريب، ذلك أن المساعي الرسمية الأخيرة لتعزيز صوفية الدولة يعمل على خلق إشكاليات وآثار لا على المجتمع والدولة فحسب، بل على التصوف ذاته، فتموضع التصوف داخل سياسات حرب الإرهاب يعمق الانقسام المذهبي والاستقطاب الاجتماعي، ويحول العديد من قادة الصوفية وأضرحتها وزواياها إلى أهداف مشروعة للعنف، باعتبارهم رؤوس حربة نافذة في الحرب على الإرهاب.

إن المبالغة قي زج التصوف في أتون لعبة السلطة والحرب، وتنامي نزعة التسييس، يخلق انقسامات مذهبية خطيرة في إطار سياسات الحشد والتعبئة، ويحول المجتمع والدولة إلى ساحة حرب، يواجه فيها التصوف التسلف، وإذا كانت المواجهة الفكرية بين الصوفية والسلفية تاريخية قديمة، فإن الجديد هو استهداف الشخصيات الصوفية وزواياها وأضرحتها، وهو ما لا يمكن تفسيره فقط بارتفاع المد السلفي عموما والجهادي منه خصوصا فقط، فالتيارات السلفية طالما كانت موجودة على مدى عقود دون أن تتجاوز المواجهة إطار التنافس الفكري، ولكن مع سياسات الحرب على الإرهاب تثار في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي أسئلة عديدة مثل: "ماذا يحدث عندما يتحول الصوفيون إلى

وكيل أمريكي في الوقت الذي يصبح فيه الأمريكيون أنفسهم هدفا بعيد المنال عن أسلحة هذه الجماعات؟"، وحسب أليس فيليبو عندما تحاول الدولة – وبخاصة الدولة السلطوية – ركوب موجة حركة إسلامية بعينها من أجل تحقيق أهداف سياسية مثيرة للجدل، فإن هذا غالبا ما يؤدي إلى إضعاف الحركة. في هذا السياق، يمكننا أن نتساءل ما إذا كان الترويج واسع النطاق للصوفية في إطار الحرب الأمريكية على الإرهاب، والنظر المحتمل إليها من قبل قوى جهادية فاعلة على أنها أداة في يد الإمبريالية الجديدة يمكن أن يفسر جزئيا أسباب تحول الأضرحة الصوفية بعد أحداث ١١ سبتمبر إلى مسرح للعمليات التي تشنها الجماعات الراديكالية المسلحة، وهو ما أودى بحياة كثير من الصوفيين[1]

[1] انظر: أليس فيليبو، الصوفية كوسيلة للحرب على الإرهاب، مرجع سابق.

عن التصوف: رؤية مختلفة

أ.ابراهيم العجلوني

تأخذ الرؤية التي نحاول الصّدع بها هنا وُجهتين مختلفتين وإن ضّمهما إطار واحد، أما أولاهما فنبدؤها بما جاء في عوارف المعارف للإمام شهاب الدين السهروري من أن بعض الصالحين كتب إلى أخٍ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه: "يا أخي، كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، وألباب عليّ مردود"، فكتب إليه أخوه: " لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلّت أمور المسلمين وغَلَب الكفار؛ فلا بدّ من الغزو والجهاد"، فكتب إليه: " يا أخي، لو لزم الناس ما أنا عليه، وقالوا في زواياهم، وعلى سجّاداتهم: الله أكبر، لا نهدم سور القسطنطينية" ..

ونقرأ في تعقيب الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق على هذه الحكاية بعيدة الدلالة أنه قد تستولي على أحدهم "الحال" فيغمره الشعور الفيّاض بسلطان الألوهية النافذ الفعّال الشامل، ويغفل في فترة استيلاء هذه الحال عن القوانين التي رسمها الله سبحانه للنصر والجهاد، فيقول – وهو تحت سيطرة الحال – لو قال الناس "الله أكبر" وهم على سجاداتهم وفي زواياهم لا نهدم سور القسطنطينية. ثم يفيءُ إلى نفسه فيرى أنه وإن كانت قدرة الله سبحانه لا يقف أمامها سور القسطنطينية ولا غيره؛ إلا أن الله (سبحانه) رسم نهجاً إيمانيّاً هو نهج الجهاد الدائم، وأن الناس لو لزموا ما لزمه " لا ختلّت أمور المسلمين وغلب الكفّار .. فلا بدّ من الغزو والجهاد "..

وفي تعقيب نراه نحن، في ضوء حقائق الإيمان وحقائق التاريخ في آنٍ، نقول إنه لو اتسعت الزوايا والخُلْوات لجهات الأرض الأربع، وارتفع فيها التكبير على وُسع الحلوق؛ فإن ذلك كُلَّه لا يقدّم ولا يؤخر ما لم نتمثّلْ قوله تعالى في محكم التنزيل: "وإعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " وقوله تعالى: " قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم "، وغير ذلك من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي الكريم.

ثم إن التصوف الإسلامي الحق "الذي يحيط بحقائق الكون وحقائق الإجتماع البشري وسنن الله في خلقه" قد حظي بأنموذجات من أبطال "الجهاد الحربي" ما أحرانا أن نستحضرها ونحن نرى إلى ضرورة تحقق فريضة الجهاد في واقع المسلمين الذي أصبح نهباً لأعداء الأمة يتحيّفونه من كل جانب ويمعنون فيه تقسيمـًا، وإلى ضرورة إحياء روح المقاومة في الجسد الإسلامي الممتد من أقصى الأرض إلى أقصاها؛ لأن ذلك – إن كان – سيكون توطئةً ومهاداً لأن تشرق الأرض بنور ربها، ولأن تقوم حضارة ربانية تكرّم الإنسان، وتخرج به من ألوان العبوديات التي تهتضم وجوده في مصطخبٍ من الشعارات الخادعة، والأُلهيات، وضروب الخدع والإستهواءات ..

على أن بنا، قبل ذلك، أن نعود إلى فجر الإسلام وما استنار به من أوجهٍ ناضرة مستبشرة أحاطت كهالة القمر برسولنا الكريم، وكانت مثال الصفاء الروحي والسمو الأخلاقي، ولا سيما أصحابَ بيعة الرضوان، والمُبشرين العشرة بالجنة، وأهلَ بدر الكبرى وغيرَهم من مجاهدي الإسلام الأوائل ورافعي رايته ..

إنه إذا كان لنا أن نصف أولئك المؤمنين المقاتلين بالشهداء، فإنما هي "الشهادة" بمجمل معانيها وشمول دلالاتها، وهي شهادة قائمة أبد الدهر نملك أن نتخذها معياراً لصدق الصادقين من لدن تنزّل الوحي على الصادق الأمين إلى أبد الآبدين ..

وفي ضوء هذا التصور نرجّح صورة "المتصوف المقاتل في سبيل الله" على صورة صاحب الدعاء الذي ينتظر أن تتهاوى أمام دعائه الأسوار، أو تنهار الجيوش، أو تنسحب مختارة من أرض المسلمين ..

وإن لنا هنا أن نرى إلى "شقيق البلخي" وهو يسارع إلى خوض المعارك، لا يبالي على أي جنب يكون مصرعه في سبيل الله ..

لقد كان هذا العابد الزاهد يحارب أعداء أمته مسلحـًا بإيمانه وعدته الحربية معـًا، وكان يرى نفسه لدى احتدام القتال كما لو أنه في ليلة زفافه، ولقد مات شهيداً في ساحة الجهاد ..

ثُمّ إن لنا أن نرى إلى حاتمٍ الأصمّ وهو يخاطب نفسه وقد حمي وطيس المجالدة "ويحكِ، لن تراعي".

حتى إذا أُسر في المعركة، ووُضع تحت السكين، وجثم أحد علوج الأعداء على صدره ليذبحه، كانت حالة كما يقول: "كنت انتظر ماذا يحكم الله تعالى فِيَّ" فبينما هو كذلك أصاب العلج سَهْمٌ فقتله، فقام سليمـاً معافى ليعاود القتال مرة أخرى ..

وإذ نكتفي بهذين الشاهدين، على وفرة ما يمكن التمثل به في هذا الباب، فإننا نخلص من قريب إلى ما هدفنا ابتداءً إلى توكيده، أو إلى ما أردنا التدليل عليه من كون طابع التصوف – إن كان هو الزهد والصفاءَ وسموَّ الروح وخلوصَ العبادة لله – مُكتَنفـاً في شتى حالاته بالظروف التي تمر بها الأمة، إذ لا يجوز أن يكون حالة تطهّر خاصة، وأرضُ الإسلام تتغشاها ظُلمات الإستعمار والصهيونية، ولا يجوز أن يكون وجداً ذاتيـاً، وثمةَ جموعٌ مؤمنة في فلسطين – مثلاً من أمثلة – تتعرض لأقصى ألوان الإضطهاد، وثمة حُرُماتٌ للإسلام تُنتهك، وائتمارات تُحاك ليلاً نهاراً، كي لا يكون في الأرض موحّد لله، وكي تؤول ديار المسلمين صعيداً زلقا ..

إنه، لا ريب، إن عمق الإيمان، وصفاءالنفس، وصدق التوكّل، كل أولئك مما يتصف به المسلم وهو يجاهد لاستكمال صورته المعيارية بما هو "متصوّف" زاهد في الخلق، ناشد للحق، متعرّض للنفحات .. لكن ذلك كله مُمْتَحنٌ بواجب الدفاع عن حياض الإسلام وعن كرامة الأمة، وعن رسالتها العظيمة التي جاءت رحمة للعالمين .. قد تكون هذه وجهة نظر مختلفة وقد لا تكون ..

ولكنها في اعتقادي مما ينبغي أخذه في الإعتبار، لما يكتنف الإسلام وأهله من شباك منصوبة، ومهالك ظاهرةٍ أو محجوبة، ولما نعلمه من أن راية الجهاد ستظل ما بقي الجديدان مرفوعة .. حتى يرث الله الأرض ومن عليها ..

وأما ثانية الوجهتين في حديثنا فهو متعلقة بما قد نسميه "فائض اللغة " أو " ألعاب اللغة" في كثير من أدبيات التصوف، ولا سيما لدى الإمام الأكبر محي الدين بن عربي.

(وقد نسميه " فائض اللغة" لما يَشي به من تفجر التعبير وغزارته فيما قد تُجزِئُ عنه جوامع الكلم أو يفي بغاياته الإيجاز البليغ . كما نسميه " ألعاب اللغة " لما يعكسه من مهارات تعبيرية تريد لِتنْأى بالتعبير عن أن يكون مما يدركه حتى الخاصة من ذوي الألباب،

إذ هو فيما يبدو حكر على خاصة الخاصة، أو لعلهم لا يخلُصون إليه إلا بشق الأنفس أو بألوان من العنت هيهات هيهات يصبرُ لها إلا من رحم الله من أفراد قلائل على مفارق العصور.

وحتى لا تظل تضرب في التنظير، فتعالوا نقرأ من كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى (ص٧٠) من مجموعة رسائل ابن عربي قوله: (من مناجاة التشريف والتنزيه والتعريف والتنبيه) :

عبدي ..
لولاك ما كان سلوك ولا سفر
ولا عين ولا أثر
ولا وصول ولا انصراف
ولا كشْفٌ ولا إشراف
ولا مكان ولا تمكين
ولا حال ولا تلوين
ولا ذوق ولا شُرْبْ
ولا قشر ولا لُب
ولا عبد ولا رَبٌ
ولا خطاب ولا نَفْس
ولا هيبةٌ ولا أنس
ولا نَفسَ ولا قَبسَ
ولا فرس ولا جَرَس
ولا جَناح ولا رفرف
ولا رياحٌ ولا موقفْ
ولا معراج ولا انزعاج
ولا تحلّي ولا تجلّي
ولا جودٌ ولا وجودْ

ولا حَمْد ولا محمودْ

ولا تداني ولا ترقي

ولا تدلّي ولا تلقي ... الخ

وتعالوا نقرأ من ترجمان الأشواق للشيخ ابن عربي قوله: ص٥-ص٦

كلمــــا اذكـــــر مـــــن طلــــل — أو ربــــــوع أو مكــــــان كلمــــا

وكـذا ان قلـت هـي أو قلـت يـا — وإلا " إن جـاءَ منـه أو "أمـا"

وكـذا ان قلـت هـي أو قلـت هـو — أو هُمُـو أو هـن جمعـًا او همـا

فاصــرف الخــاطر عــن ظــاهرِهِ — واطلــب البــاطن حتــى تعلمــا

وتعالوا نقرأ، بَعدُ من احدى رسائله إلى أحد أصحابه مِن كتاب الكتب من رسائل ابن العربي:

أما بعد ..

فإن صاحب المقامات إذا رام المقامات .. مات

فإذا إراد النتهاض.. هاض

أو الإنفساح .. ساح

أو الإلهام .. هام

أو الإنتفاض ... فاض

أو مناجاة الأسحار .. حار

أو مناجاة الآصال .. صال

أو سلوك الآثار .. ثار

أو صعود المنار ... أنار

أو يفوز بالفراغ .. راغ

أو هم بالإنتزاغ ... زاغ

أو وصل إلى الايجاد ... جاد

أو يُعصم عن الاتحاد .. حاد

أو يُحشر مع الأتباع .. باع

أو يغلب في الكفاح ... فاح

أو يهدم الأشباح .. باح ... الخ

ثم لنقرأ أخيراً من كتاب التجليات من مجموع الرسائل قوله:

لستُ أنا، ولست هو	**فمن أنا ومن هو**
فيا هو قل أنت أنا	**ويا أنا قل أنت هو**
لا، أنا ما هو أنا	**ولا هو ما هو هو**
لو كان هو ما نظرت	**ابصارنا به لَهُ**
مافي الوجود غيرنا	**أنا وهو وهو وهو**
فمن لنا بنا لنا	**كما له به لَهُ**

إن مما نعتقده أن الرغبة في تحقيق معنى التفرد والخصوصية من جهة، والحرص على تحقيق التنائي بالذات وبالتجربة عن عامة الناس وخاصتهم، هما اللذان يقفان وراءَ هذا التجلي الظاهر لألعاب اللغة ومهارات التعبير .

وإن هذا ليفضي بها إلى فكرة أن "التعميم" غير وارد في التجربة الصوفية بوجه عام، ناهيك به مستحيلاً في تجربة ابن عربي بوجه خاص، وإلا فكيف تفهم قوله:

كفرت بدين الله والكفر واجب لـدّيّ وعند المسلمين قبيحُ

إلا أن نتأوّله ببعيد الافتراضات ونَلُمّ تناقضاته بما لا تتسع له ارحب التصورات؟

وكيف نفسر، من جانبٍ آخر، هذه الحركات اللغوية، ونحدس مقاصدها، إلا أن نحسبها جملة على نُشدان الغرابة على حساب المضامين التي لا ينبغي تناولها إلا بأكثر صور التعبير بيانـًا، تأسّيـًا بكتاب الله وسُنّـةِ رسوله وبما جاء فيهما من بيان للناس أو من آيات بيّنات .. ؟

لا ريب أن بحث هذه المسأله مما لا يحتمله مقامنا هذا

ولعلّي إذ اكتفي بهذا الإلماح، أن أكون أثرتُ تساؤلاً مشروعـًا حول جانبين أراهما على قدر كبير من الأهمية في التصوف على نحو، قرأنا وعرفنا..

وبالله وحده التوفيق ...

التصوف الراشد: الجذور والآفاق
ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

سماحة الامام الصادق المهدي

أخي الرئيس

أخواني وأخواتي، أبنائي وبناتي

السلام عليكم مع حفظ الألقاب والمقامات. أما بعد،

أجزل الشكر للمحضرين والحاضرين للمشاركة في هذا الموضوع المهم.

أمتنا اليوم مقسمة دولاً، ومذاهب، وقوميات، وطرقاً صوفية.

للطرق الصوفية اليوم كثرة عددية بين أعداد أمتنا التي بلغت ملياراً ونصف.

مر على التاريخ فترة في القرن التاسع عشر الميلادي ظن الفكر الغالب عالمياً أن الدين مرحلة طفولة إنسانية توشك أن تختفي ليحل محلها العلم الوضعي كما قال أوقست كومت وكررت تصوراته رواية "أولاد حارتنا" حذوك النعل بالنعل.

ولكن مع زحف العلمانية والعولمة في الربع الأخير من القرن العشرين، شهدت كل الأصوليات الدينية صحوة مشهودة، لا سيما الإسلام فهو بلا مقارنة أكثر المنظومات الملية معقولية، وأكثر الإيمانيين تقديراً للعقل، ما جعله القوة الثقافية العالمية الأكبر، وجعل الكتاب غير المسلمين يصنفون نبيه الأول في تاريخ الإنسانية، بل جعل كاتباً عالماً بالأديان المقارنة يؤلف كتاباً بعنوان "هل كان المسيح مسلما؟" وأجاب في الكتاب بنعم. هذا ما قاله روبرت شدنقر في كتابه.

ولكن عوامل في الواقع العالمي جعلت السيدة أنجيلا ميركل تقول في دهشة: سكان الصين والهند معاً يبلغ عددهم ٢,٥ مليار نفس وهم يتبعون ٣٠٠ ملة و١٥٠ إلهاً يعيشون في سلام مع بعضهم، بينما المسلمون يدينون إله واحد وكتاب واحد ولكن بلدانهم ملطخة

بالدماء، القاتل يقول الله أكبر، والمقتول يقول الله أكبر. وذلك نتيجة لانتشار حركات الغلو والعنف.

إن للتصوف الراشد دوراً مهماً في نهضة الأمة، وفي بناء الحضارة الإنسانية كما سوف نبين في هذه الرسالة عبر عشر نقاط:

أولاً: الإنسان جزء من الطبيعة ومفارق لها في ثلاثة أمور: أن فيه قبساً من روح الله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴿٩﴾ ﴾ **[السجدة : ٩]**. ووهب العقل البرهاني: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ **[النحل: ١٢]**. ومنح حرية الإختيار: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ **[الكهف: ٢٩]**.

الإنسان بفطرته الروحية مستعد ليقظة روحية، وهو كذلك محكوم بمطالب مادية وغرائز كسائر الحيوانات. هذه العوامل تدفع نحو الإقبال على الدنيا واتباع الشهوات. لذلك انبرى قوم للاهتمام بالفطرة الروحية والزهد في الدنيا ولبسوا الصوف الخشن من الثياب. هذه التسمية للزهد ظهرت في القرن الثاني من الهجرة.

اتسم بالزهد القراء وكذلك أهل الصفة وبعض الصحابة كأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود ﷺ.

إلى جانب حياة الزهد اهتم هؤلاء بتأويل نصوص القرآن عدولاً عن ظاهرها، وبنصوص تعد المؤمنين بجزاء روحي في الدنيا قال تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴿٢٨﴾ ﴾ **[الحديد: ٢٨]**.

هذه النزعة نحو الزهد والمعاني الروحانية ظاهرة تدعمها أحاديث مثل الحديث القدسي: "ما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها"[1].

ثانياً: في الصدر الأول كانت نزعة الزهد والروحانية موجودة في توازن مع حكم الشورى والعدل الاجتماعي والتآخي بين المؤمنين. ولكن أربعة عوامل هزت ضمير المسلمين وغذت التطلع لواحات روحانية تطيب قسوة الظروف.

[1] صحيح البخاري

العامل الأول: اغتيال خلفاء النبي ﷺ لا سيما عثمان بن عفان، وعلي بن علي طالب رض الله عنهما، فانطلقت فتنة بين المؤمنين واشتبكوا في اقتتال دامٍ مزق الاخاء بينهم، بل جعل كثيرين يتفاخرون بسفك دماء الخلفاء، قال عمران بن حطان يمدح قاتل الإمام علي:

يَـا ضَـرْبَةً مِـنْ تَقِـيٍّ مَـا أَرَادَ بِهَـا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانَا

العامل الثاني: صارت الخلافة ملكـًا عاريـًا من الشورى يقوم على التغلب في نهج اعتمده الفقهاء كما قال ابن حجر العسقلاني: أجمع الفقهاء على طاعة المتغلب والقتال معه. فصارت ولايتهم بعيدة عن وجدان الناس كما قال الشاعر:

خَليفَـةٌ مـاتَ لـم يَحـزنْ لَـهُ أَحـدٌ ... وآخـرٌ قـامَ لـم يفـرحْ بـهِ أحـدُ
فمـرَّ هـذا ومـرَّ الشـؤمُ يتبعـهُ ... وقـامَ هـذا فقـامَ الشـؤمُ والنَّكـدُ

العامل الثالث: مع حرص نصوص الإسلام على العدل الاجتماعي تفشت طبقية وترف طبقي حتى قال قائلهم:

مهـر الفَتَـاةِ بِـأَلْفِ أَلْـفٍ كَامِـلِ ... وَتَبِيْـتُ سَـادَاتُ الجُيُـوْشِ جِيَاعَـا
لـو لأبـي حفـص أقـول مقـالتي ... وأقـص مـا سأقصـكم لارتاعـا

العامل الرابع: فزع كثيرون من الترف وفساد الأخلاق الذي صوره الشعراء:

بَنِـي أَمَيَّـةَ هُبُّـوا طَـالَ نَـوْمُكُمُ ... إِنَّ الْخَلِيفَـةَ يَعْقُـوبُ بْـنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمُ فَالتمسُوا ... خَلِيفَـةَ اللهِ بَـيْنَ الـزقِّ وَالْعُـودِ

ورسمت أشعار عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس صوراً فظيعة:

قال عمر:

قَالَتْ: وَعَيْشِ أَبي وَحُرْمَةِ إِخْوَتي ... لأُنَـبِّهَنَّ الحَـيَّ إنْ لَـمْ تَخْـرُج
فَخَرَجْتُ خَوْف يَمينِها فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْـتُ أَنَّ يَمِينِهـا لَـمْ تَحْـرُج
فَلَثمْـتُ فاهـا، آخِـذاً بِقُرُونِهـا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَج

أما أبو نواس فقد تجاوز كل الخطوط الحمراء في همزيته الماجنة وغيرها:

عـاجَ الشـقِيّ علـى دارٍ يُسـائِلُها ... وعُجـتُ أسـألُ عـن خَمّـارَةِ البلـدِ

في هذه الظروف تطور التصوف من بدايات تلقائية بسيطة، إلى مقولات تفسر نصوص الوحي تأويلاً روحيًا، حتى تحدثوا عن تمييز علم الباطن من علم الظاهر، وميزوا الانتماء للنهج الصوفي بالدخول في سير يبدأ بالتوبة، ثم الترقي الروحي، حتى يصل المريد إلى مقام الفناء أي الفناء في الذات الإلهية كقولهم:

قلوبُ العاشقينَ لها عيونٌ ... تَرى ما لا يَراهُ الناظرونَ
وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ خفق ... إلى ملكوتِ ربِّ العالمينَ

من باب هذا الطيران أتى أفراد أقولاً وأعمالاً شاذة سميت الشطحات. هذا الخروج الواضح عن الشرع أدى لقيام علماء صوفيين كالإمام الغزالي الذي أوجب أن يكون الإنسان عالمـًا بعلوم الشريعة والعلوم العقلية قبل خوض غمار التصوف.

ثالثـًا: في القرن السادس الهجري ظهر اتجاهان أحدهما شعبي والآخر صفوي.

معلوم أن الكيان السياسي للأمة الإسلامية ضم في حدوده ثقافات الشرق الأسط الكبير، وهي ثقافات ذات مرجعيات هندية، وفارسية، ويونانية. وحدة الوجود عقيدة هندية وهي تقول إن الله هو الحقيقة وإن كافة المخلوقات تجليات للذات الإلهية.

الاستشهاد بالمخلوقات لوجود الخالق معلوم ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ١٩، ٢٠]. لذلك قيل:

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

ولكن ابن عربي قال:

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تَدُلّ على أنّهُ عينه

ونفس المعنى قال به ابن الفارض في تائيته المشهورة:

ففي الصّحوِ بعد المَحْوِ لم أكُ غيرَها ... وذاتي بذاتي إذ تحَلّتْ تجَلّتِ
وما زِلْتُ إيَّاها وإيايَ لَم تَزَلْ ... ولا فَرْقَ بل ذاتِي لذاتي أحَبَّتِ

وحدث تأثر بالفكر اليوناني الذي يقول: إن الله لم يخلق الكون مباشرة لأن الله كامل والكون ناقص، وصدور الناقص من الكامل محال. قال أفلاطون: الله واجب الوجود تصدر عنه النفس الكلية أو العقل الأول. إن بين الإله والكون واسطة هي النفس الكلية أو العقل

الأول. هذه الفكرة أثرت في مقولة ابن عربي عن الحقيقة المحمدية وهي القوة المدبرة للكون منذ الأزل وإلى الأبد. هذا دور للنبي ﷺ قبل مولده ومستمر بعد وفاته كما قال الشاعر:

لولاهُ ما كانَ أرضٌ لا ولا أفقٌ ... ولا زمانٌ ولا خلقٌ ولا جيلُ

الحقيقة المحمدية هذه مدبرة لشئون الكون، واتصالها بالناس عن طريق الأولياء، ولهم في كل زمان رئيس هو الغوث وهو الواحد موضع نظر الله من العالم في كل زمان. تحت الغوث الأوتاد الأربعة، وتحتهم النقباء ثلاثمائة، ثم النجباء أربعون. هذه دولة كاملة غيبية ويدخل فيها من بلغوا مقام الحضرة وهي اجتماع روحي تنكشف فيه حقائق الأمور.

وعندما حل القرن العاشر الميلادي صار صوفيون يقدمون تفسيراً كاملاً للوجود ومكانة الإنسان فيه، وعلاقة الإنسان بالله. ومن لوازم هذا التفسير أن أولياء الله هم الواسطة بين الله والناس. وحول الأولياء يلتف المريدون بحيث يكون الاتصال بين الولي والمريد حلقة أساسية ينبغي أن يسعى إليها كل مريد لأنه بذلك يتصل بسلسلة الأولياء التي تنتهي إلى النبي ﷺ. فمن لا شيخ له شيخه الشيطان.

على هذا الأساس قامت الطرق الصوفية فأقبل عليها الناس حتى كادت تضم الأكثرية في القرن الثالث عشر الميلادي.

رابعـًا: الطرق الصوفية أتاحت للناس حلقات انتماء يرأسها شيخ ما، وفر لهم تعليمـًا وتربية إنتماء لجماعة تردد الأذكار بصورة جماعية، وتنشد المدائح، وتحرق البخور وتدق الطبول، وتستخدم وسائل الفنون الشعبية المستمدة من البيئة الاجتماعية.

في كتابه عن سوسيولوجيا الدين ذكر ماكس فيبر أن تدين الناس يحكمه مستواهم العقلي والاجتماعي ما يجعل تدين العامة متأثراً بعوامل الفولكلور المحيط بهم، بل يجعل هؤلاء يفسرون حقائق الدين بما يناسب عقلياتهم من غيبيات وقصص. لذلك يمكن أن يقال إن الطرق الصوفية أتاحت للجماهير تدينـًا شعبيـًا في حمى الإسلام.

خامسـًا: إن للتصوف الراشد دوراً مهمـًا في مصير الأمة ولكن فتح الباب للغيبيات، وادعاء الكرامات، وسلطة الشيوخ المطلقة مع المريدين فتحت الباب لمساويء أضرت بالتصوف.

ولكن التصوف الرشيد قال باحترامه أئمة الاجتهاد كما قال الإمام مالك: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق.

وقال الإمام الشافعي:

فَقيهاً وَصوفِيًا فَكُن لَيسَ واحِداً فَإِنّي وَحَقُّ اللَهِ إِيّاكَ أَنصَحُ
فَذَلِكَ قاسٍ لَم يَذُق قَلبُهُ تُقىً وَهَذا جَهولٌ كَيفَ ذو الجَهلِ يَصلُحُ

سادساً: هنالك مسائل متعلقة بالتصوف على المستوى الشعبي فإن القيادة الفردية المطلقة لشيخ الطريقة فتحت الباب واسعاً لإدعاءات وخرافات وأوهام بخصوص قدرات الشيخ، واعتبار الشيخ واسطة بين المريد والله يلغي حقيقة العلاقة المباشرة التي يوجبها الإسلام بين العبد وربه.

والتسامح مع نظم الحكم سمح للطرق الصوفية في كثير من الأحيان التعايش مع الطغيان، ونفس هذا التسامح مع الطغاة سمح لبعض الطرق الصوفية مناهضة حركات التحرير ضد الامبريالية. والتعايش مع البيئة الثقافية المحلية فتح الباب لممارسات دجل وطقوس سحر ذميمة. وبدا كأن شيخ الطريقة بدعوى علم الحقيقة يستطيع أن يفعل ما يشاء دون ضابط شرعي على نحو ما روت طبقات ود ضيف الله في سودان السلطنة الزرقاء عن حادثة الشيخ الهميم الصوفي والقاضي دشين الفقيه. قال القاضي دشين لقد تزوجت خمساً والآن جمعت بين أختين عقدك هذا أنا فسخته، قال له الشيخ الهميم الله يفسخ جلدك. وقالت الرواية: فانفسخ جلده.

سابعاً: إن للتصوف محامد لا تنكر أهمها:

- التركيز على مكارم الأخلاق والحرص عليها بين المريدين.
- بسط التسامح ساهم في قبول الآخر والعدول عن التكفير الذي يمارسه آخرون.
- ومن إيجابيات التصوف ابتعاد أهله عن العنف وترسيخهم لقيمة التسامح في المجتمعات.

• في حالات قيام سلطة معادية للدين كما حدث في الاتحاد السوفيتي وتركيا الكمالية فإن الطرق الصوفية وفرت للناس فرصة بيات شتوي للمحافظة على العقيدة دون صدام مع السلطة.

• أتاحت مساجد الطرق الصوفية وخلاوي القرآن فيها فرص تعليم شعبية ساهمت في محو الأمية وتعليم القرآن والواجبات الدينية.

• التصوف بشر الناس برجاء رحمة الله فالمذنبون يصيبهم اليأس والله غفور رحيم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال البصيري في ميمية مدح ﷺ:

لعَـلّ رَحمَـةَ رَبِّـي حـينَ يَقسِـمُهَا ... تَأتِي على حَسَبِ العِصيَانِ في القِسَمِ

• في عالم اليوم يعيش بين المسلمين ملل أخرى ولا يتحقق السلام الاجتماعي إلا بقدر كبير من التسامح الذي يمارسه التصوف. كذلك يعيش ثلث أمتنا وسط شعوب أخرى غير مسلمة. هنالك نهج يشعل الصدام كما أباح يونس الأسطل للمسلم قتل المدنيين الغربيين لأنهم ظهر لحكوماتهم الجائرة. ورغم أننا نعيش ضيوفاً وسطهم قال محمد الفاسي: نحن نعيش وسطهم ونعمل أعمالاً دونية ولكنها دار حرب الأموال والدماء فيها مستباحة.. تسامح التصوف هو الذي يناسب هذه الظروف.

• التصوف أوحى بكثير من الآداب والفنون لا سيما في الشعر كأشعار رابعة العدوية وأشعار ابن القارض، أشعار مغذية للآداب والجماليات.

• كان للتصوف دور مهم كقوة ناعمة للإسلام استطاعت أن تنشر الإسلام بالحسنى في أفريقيا جنوب الصحراء، وفي جنوب شرق آسيا في ظروف فيها كيان الأمة السياسي والإستراتيجي ضعيف.

• في عالم اليوم حيث تسيطر منظومة حقوق الإنسان بإرادة من الشعوب، يرجى تحقيق أعلى درجة من التعايش بين مذاهب المسلمين، فالحروب الدينية غير مجدية، كذلك تحقيق التعايش السلمي بين الأديان وتبادل المنافع والمصالح بين الثقافات

والحضارات. في هذه المجالات كلها وهي مهمة لبناء الحضارة الإنسانية فإن للتصوف الراشد دوراً مهماً.

- ثقافة التصوف ونهج أصحابه حفي بأعظم عاطفة إنسانية هي الحب. الحب لله ولرسوله، وفي العلاقة بين البشر، فعلاقات الناس التي تقوم على الاختصاصات والقوانين جافة. والنظر للعلاقة الزوجية من باب الالتزام جاف بل أن تقوم على المودة والرحمة. الثقافة الصوفية تهتم بعلاقة المحبة بين الناس. المحبة نعيم بين الناس في كل المجالات كما قال إيليا أبو ماضي:

قال قوم إن المحبة إثم ... ويح بعض النفوس ما أغباها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي ... وبالحب قد عرفت الله

والله تعالى يعرف الإيمان بشدة حبه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥] عاطفة يحتفي بها أهل التصوف كثيراً كما قالت رابعة:

أحبك حبين حب الهوى ... وحب لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بحبك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له ... فلست أرى الكون حتى أراك

ثامناً: نقول الراشد، وهذا يتطلب على المستوى الفلسفي الصوفي تجنب دعاوى الفناء في الله وهي عقيدة النرفانا الهندوسية. المطلوب المحبة لله باعتباره ذات ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. والآية ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤]. عقيدة وحدة الوجود تلغي الأخلاق المؤسسة على أن الإنسان ذات مسؤولة عن سلوكه.

وعلى صعيد التصوف الشعبي ينبغي ألا تطمس علاقة المريد بالشيخ المسؤولية الشخصية للمريد.

وينبغي قيد سلطة الشيخ بالشورى لأن في ممارستها بصورة مطلقة مضرة. والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة.

الطرق الصوفية تصلح لتصير وحدات مجتمع مدني تساهم في مجالات الصحة، والتعليم، والأنشطة الاستشارية وغيرها من مجالات الأنشطة المدنية.

يرجى أن تتنادى الطرق الصوفية إلى مؤتمر مراجعات يحدد إيجابيات التصوف وسلبياته، ويضع خريطة طريق لدور التصوف في نهضة الأمة، وفي بناء الحضارة الإنسانية.

هذه المراجعات على ضوء ما ذكرنا تحقق صحوة صوفية ترفد الصحوة الإسلامية وترفد بناء الحضارة الإنسانية.

تاسعـًا: نحن أنصار الله بصدد عقد مؤتمر لإجراء مراجعات أساسية تعرف المهدية باعتبارها وظيفة إحياء الدين غير مرتبطة بشخص غاب ويعود. وغير مرتبطة بآخر الزمان بل بتوجيهات قرآنية ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[الانعام : ٨٩] وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٥]. وفي آخر الزمان ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴿١٥٨﴾﴾[الأنعام: ١٥٨].

وفي سبيل الدعوة الوظيفية لا تكفير لأصحاب الاجتهادات الأخرى، بل يتعايش كافة المهتدين بموجب ميثاق ملزم للكافة.

ويرجى أن يعقد السلفيون كذلك مؤتمر مراجعات لتأكيد أن السلفية في الشعائر ملزمة للكافة فهي ثوابت، ولكن في أمر المعاملات والعادات فهي متحركة تتطلب من الفقيه أن يحدد الواجب اجتهاداً ويحيط بالواقع ثم يزاوج بينهما كما قال ابن القيم، كما ينبغي التخلي عن تكفير أهل الشهادة.

الحركات ذات المرجعية الأخوانية ينبغي أن تعقد مؤتمر مراجعات للتخلي عن الانقلابات سبيلاً للسلطة، وعن مبدأ الحاكمية القطبي فولاية الأمر شورية بين الناس. وعليهم جميعـًا ضبط ولاية الأمر بمقولة أبي بكر رضى الله عنه لدى بيعته وهي مقولة ملتزمة بالأسس الأربعة للحكم الراشد: المشاركة، والمساءلة، والشفافية، وسيادة حكم القانون.

والشيعة الإثنا عشرية عشرية ينبغي أن تراجع ولاية الفقيه العامة، فولاية الفقيه في المسائل الشعائرية صحيحة ولكن في المعاملات فإن الولاية للأمة. هذا ما قال به المصلحون من الشيعة الإثني عشرية.

ختامـًا: قال محمد أسد: رغم العقبات التي صنعها تخلف المسلمين فالإسلام هو أعظم مستنهض للهمم عرفه البشر.

هذه المراجعات ضرورية لقيام الإسلام بدوره في نهضة الأمة وفي بناء الحضارة الإنسانية.

قال الصوفي الكبير محمد أقبال: يحتج بعض الناس بالقضاء والقدر لقعودهم. المؤمن الحقيقي يعتبر أنه قضاء الله الذي لا يرد.

وقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

قال الشاعر السوداني الهادي آدم:

إِذَا التَـفَّ حَـوْلَ الحـقِّ قَـوْمٌ فَإِنّـهُ — يُصَــرِّمُ أَحْــدَاثُ الزَّمــانِ وَيُبْــرِمُ

هذا وبالله التوفيق،

الدور الحضاري للتصوف الإسلامي

أ.د. عـــزمي طه السيد أحمـــد

تمهيد

التصوف بعامة ظاهرة إنسانية وجدت في معظم الحضارات والأديان والتصوف في الحضارة الإسلامية ظهر بعد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وله جوانب متعددة؛ دينية واجتماعية ونفسية وتربوية واقتصادية وهو لهذا جدير بالاهتمام لكي يصبح ظاهرة إيجابية لها دورها الحضاري في المشروع النهضوي المأمول للأمة العربية والإسلامية.

من هنا يأتي هذا البحث **مركزاً على ما ينبغي أن يكون** في بيان ما يمكن أن تقدمه هذه الظاهرة (أعني التصوف الإسلامي) من دور إيجابي:

أبدأ ببيان مفهوم التصوف الإسلامي، ثم بيان مفهوم الحضارة لننتقل بعد ذلك إلى بيان ما في التصوف الحق المنطلق من الإسلام عقيدة وسلوكـاً، من أمور إيجابية يمكن أن يكون لها دور حضاري إذا ما جرى الوعي بها من قِبل من ينسبون أنفسهم إلى التصوف.

ونود أن نؤكد من البداية على مسألة هامة، وهي أن التصوف الإسلامي الذي نعنيه في حديثنا هنا، ليس أمراً يمكن أن نضعه مقابلاً للإسلام، وإنما هو الإسلام في صورة من صور السلوك (الإسلامي) المنبثق من الإسلام نفسه، الساعية إلى تحقيق أقصى قدر ممكن من مفاهيمه ومضامينه وأهدافه وغاياته، وهي الصورة التي عبَّر عنها مصطلح **الإحسان** الوارد في الحديث الشريف المعروف[1].

[1] مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإســلام والإحسان ..، حديث رقم ٥.

ولسائل أن يسأل: لماذا لا نلغي مصطلح « التصوّف الإسلامي » ونكتفي بلفظ: الإسلام؟ وهو سؤال له ما يبرره من الناحية المنهجية ما دام أمر التصوّف الإسلامي هكذا.

نقول في الإجابة عن هذا التساؤل: إن لهذا المصطلح جذوراً في المجتمع الإسلامي راسخة من العسير اقتلاعها، والأمر الذي يهمنا ليس أمر شكل أو اسم بقدر ما هو مضمون، فما يهمنا هو مضمون السلوك الصوفيّ، الذي نريده إسلامياً بكل معنى الكلمة، خالياً من كل ما علق به من سلبيات عبر تاريخه، مستبقياً لما فيه من إيجابيات هي بالفعل إيجابيات موجودة في الإسلام نفسه، بارزةً في تعاليمه، كامنةً في روحها الإيجابية.

إن ما يمكن أن يقوم به التصوف الإسلامي من دور إيجابي في المشروع النهضوي الحضاري للأمة، هو ما يقوم به الإسلام حين يمارس في صورة واعية صافية نقية سامية، تتصف **بالإخلاص لله سبحانه وتعالى**، والرغبة الصادقة في القرب منه من خلال فعل كل ما يرضيه، والابتعاد عن كل ما يسخطه.

ننتقل الآن إلى بيان:

مفهوم التصوف بعامة والتصوف الإسلامي

التصوف الإسلامي هو تصوف منسوب إلى الإسلام، وعليه سنعرض لبيان مفهوم التصوف بعامة ثم نتلوه ببيان مفهوم التصوف الإسلامي، وهذا الفعل يعين في إدراك ما بين التصوف عموماً والتصوف الإسلامي من تشابه واختلاف.

مفهوم التصوّف (بعامة)

سنقدم للتصوف بعامة تعريفاً نرى أنه يبيّن حقيقة كل تصوف بإطلاق، من خلال إبراز العناصر الرئيسة والأساسية فيه، وهو التحديد الآتي:

التصوّف سلوك إرادي ظاهري وقلبي متواصل، دعامته ممارسة الفضائل الخلقية، له دوافع وحوافز ترجع إلى استعداد خاص يتفاوت لدى الأفراد، وإلى اعتقاد معين، وإلى تجربة شخصية مرتبطة بظروف بيئية؛ وهدف هذا السلوك هو التقرّب من المطلق أو الله، وغايته القصوى الاتصال به.

وينتج عن هذا السلوك إذا ما تمَّ بصورة سليمة دقيقة – في بعض الأحيان وليس دائمـاً – حدوث ما يسميه الصوفية الفناء، واكتساب معرفة مباشرة من مصدر المعرفة المطلق (الله سبحانه)، الأمر الذي ينتج عنه في النهاية التحقق بالطمأنينة والسعادة القصوى.

مفهوم التصوف الإسلامي

ما تقدم تحديد لمفهوم التصوف بعامة، وتوضيح عام للسلوك الصوفيّ حتى يصل إلى غايته القصوى، فإذا أردنا أن نخصص الحديث ونتكلم عن التصوّف الإسلامي، فسنجد أننا بحاجة إلى إضافة بعض العبارات المخصِّصة إلى التعريف العام، ويمكننا أن نضع المفهوم الآتي لتحديد التصوّف الإسلامي، فنقول:

التصوّف الإسلامي سلوك إرادي ظاهري وقلبي متواصل مستند إلى شريعة الإسلام، دعامته الفضائل الخلقية الإسلامية، له دوافع وحوافز ترجع إلى استعداد خاص يتفاوت لدى الأفراد، وإلى عقيدة الإسلام، وإلى تجربة شخصية مرتبطة بظروف بيئية، وهدف هذا السلوك هو التقرّب من الله، وغايته القصوى الوصول إلى الحضرة الإلهية[١].

وينتج عن هذا السلوك ما سبق ذكره في التصوف بعامة، وأعني حدوث الفناء واكتساب العرفان (المعرفة المباشرة من مصدر المعرفة المطلق) والتحقق بالطمأنينة والسعادة القصوى واللذة التي ما فوقها لذة.

هذا التحديد للتصوّف الإسلامي إذا ما قورن بالتحديد العام للتصوّف، تبيَّن ما يختلف فيه التصوّف الإسلامي عن غيره من أشكال التصوّف الأخرى، وهذا الاختلاف نجده في الأمور التالية:

- الاعتقاد الذي يكون عليه الصوفيّ؛ فالصوفيّ المسلم ينطلق من عقيدة الإسلام وتصورها لحقيقة كل من الله والإنسان والكون، والصوفيّ الهندي ينطلق من عقيدته وديانته الهندوكية والصوفيّ المسيحيّ ينطلق من عقيدته المسيحية .. وهكذا.

---

[٢] تعبير الحضرة الإلهية عند الصوفية لا يفهم إلا عن طريق المماثلة بمثال من الواقع، إذ هو غيب، فيقرب من الفهم بمثال الحضرة السلطانية أو الحضرة الملكية، حيث يكون السلطان أو الملك حاضراً، فالحضرة الإلهية حيث يكون الله حاضراً يتصرف في ملكه ومع خلقه.

- السلوك الذي يمارسه الصوفيّ بما في ذلك الوسائل المختلفة التي يتخذها لكي توصله إلى غايته، فالصوفيّ المسلم يحدد طريقته في السلوك بالرجوع إلى الإسلام وشريعته وآدابه ولا يسلك سلوكـًا يخالف أو يناقض ما هو مقرر في شريعة الإسلام قولاً كان أم فعلاً، وهذا يشمل ممارسته للفضائل الخلقية الإسلامية.

وهكذا فإن الصوفيّ المسلم يعتقد بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقـًا ويلتزم بذلك كله، وسلوكه ووسائله إسلامية المظهر، وهو حين يستخدم وسائل غير إسلامية في أصل نشأتها فلا بد أن تكون مقبولة في ضوْء الإسلام وغير متعارضة مع أي أصل أو مبدأ فيه.

إن الاختلاف بين التصوّف الإسلامي وغيره من أنواع التصوّف الأخرى، في هذين الأمرين (الاعتقاد والسلوك) يترتب عليه اختلاف في النتائج التي يمكن أن يحققها السعي الصوفيّ في كل نوع منها، إذ نستطيع القول بصورة عامة:

كلما كانت العقيدة أصوب في تصوراتها عن الله والإنسان وعن الصلة بينهما، كانت النتائج التي يمكن الوصول إليها في السعي الصوفيّ أصوب، أي تكون النتائج على مذاق الاعتقاد (متمثلين بقول المناطقة: تكون النتائج على مذاق المقدمات)، ونستطيع القول أيضـًا: **كلما كانت وسائل التقرب إلى الله ومظاهر السلوك الصوفيّ أكثر صحة ودقة وإحكامـًا كانت النتائج أكثر صحة ودقة وإحكامـًا**، فالحال في هذا الجانب شبيه بالحال في الجانب السابق (الاعتقاد)، والحق أن الأمرين لا ينفصلان، فلا يكفي صواب العقيدة وحده، ولا صحة السلوك والوسائل وحدهما للوصول إلى النتيجة الصحيحة من السعي الصوفيّ، بل لا بدَّ من صحة الأمرين معـًا.

أنتقل الآن إلى توضيح مصطلح:

الحضارة

الحضارة هي جملة المنجزات الإنسانية المتراكمة لأمة من الأمم (أو مجتمع من المجتمعات) خلال حقبة زمنية معينة، تمت بهدف تيسير حياة الإنسان وتسهيلها وتكميل وجوده في ضوء العقيدة السائدة في هذه الأمة (أو المجتمع). وتشمل هذه المنجزات مجالين واسعين: مجال المنجزات المادية، (آلات وأجهزة وصناعات مختلفة، وكذلك المباني والطرق والجسور والمستشفيات ودور العلم ... إلخ)، ومجال المنجزات غير المادية

(العلوم على اختلافها والفنون النظرية، والنظم: إدارية ومالية وقضائية وسياسية وتربوية ... إلخ).

وفي إضاءات سريعة على هذا التحديد للحضارة، نقول:

- الأمور والأشياء التي لم يتدخل الإنسان في إنجازها، كالأنهار والجبال والبحار ... إلخ ليست من الحضارة، لكن ما يقوم به الإنسان استثماراً لمثل هذه الأمور يدخل في الحضارة فالسدود على الأنهار هي منجزات حضارية وليست الأنهار، وهكذا؛ فما ينجزه الإنسان فقط يدخل في الحضارة.
- لا تتم الإنجازات المتراكمة (الحضارة) في وقت قصير أو بضع سنوات، وحين تكف أمة عن الإنجاز، فذلك مؤشر اضمحلال حضارتها وهرمها إلى موتها.
- الأمة التي تستورد منجزاتها المختلفة وتستخدمها لا توصف بأن لها حضارة.
- لا بدَّ للحضارة من أهداف تحددها العقيدة السائدة في الأمة، فالمنجزات الحضارية ليست عشوائية بلا أهداف وغايات (تيسير حياة الإنسان وتكميل وجوده).
- قيام الحضارة، أي إنجاز المنجزات، يحتاج إلى توافر عوامل عديدة، يأتي على رأسها وجود عقيدة إيجابية، وتقدم علمي.
- سمات أية حضارة ترجع في نهاية التحليل إلى سمات العقيدة السائدة في الأمة.
- من نافلة القول – إضافة إلى ما تقدم – القول بأن المُنجِز والفاعل في قيام الحضارة هو الإنسان الذي ينبغي الاعتناء به وإعداده الإعداد الأوفى للقيام بدوره في الإنجاز.
- وأخيراً، فإن معنى أن يكون لدى أمة ما « مشروع حضاري »، هو أن يكون لديها خطة شاملة لإنجاز المنجزات – في الجانبين المادي وغير المادي – تحدد فيها الأهداف القريبة والبعيدة، وتحدد فيها الأولويات والمتوازيات.

❊ ❊ ❊

بعد التوضيح الموجز لمفهوم التصوف الإسلامي الذي جوهره سلوك يقوم به الصوفي للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وبعد التوضيح الموجز لمفهوم الحضارة الذي جوهره

إنجاز المنجزات المادية وغير المادية وتراكمها واستمرارية ذلك، ننتقل إلى البحث في صلب موضوع هذه الورقة، وهو بيان ما إذا كان يمكن لظاهرة التصوف الإسلامي أن تساهم في إنجاز المنجزات (المادية وغير المادية)، وهي الفرضية المتضمنة في عنوان الورقة.

والذي دفعنا لوضع هذه الفرضية والبحث في مدى إمكانية تحققها، ما هو معلوم من أمر الحضارة والمشروع الحضاري، وهو أنه لا بدَّ لجميع فئات المجتمع، بل وأفراده أيضاً، أن يساهموا ويشاركوا في تحقيق هذا المشروع، الذي قلنا إن جوهره « إنجاز منجزات »، والمنتسبون إلى التصوف هم إحدى فئات المجتمع، وينبغي أن يكون لهم ولسلوكهم (الصوفي) مساهمة ودور ما في تحقيق المشروع الحضاري المأمول للأمة.

لقد بيَّن اهتمامنا بموضوع التصوف أن بإمكان التصوف الإسلامي المساهمة في المشروع الحضاري للأمة، وهو ما نسعى للكشف عنه في هذه الورقة.

وقبل بيان هذا الدور الحضاري للتصوف الإسلامي نرى تقديم بعض الملاحظات التي نراها ضرورية؛

- الحديث هنا هو عن التصوف الإسلامي الصحيح الحق الذي لا يقوم على دعاوى غير مقبولة إسلامياً أو على الادعاء؛ لقد وجد في تاريخ الممارسة الصوفية في العالم الإسلامي الكثير من الجوانب السلبية[1]، مما جعل الكثيرين يصفون التصوف الإسلامي بالسلبية تجاه حركة الحياة، وأنه هروب من مواجهة الواقع والعيش في عوالم وهمية.
- إن التصوف الإسلامي الصحيح والحق هو الذي يلتزم بالعقيدة الإسلامية الواضحة وبالسلوك الإسلامي الملتزم بالشريعة الإسلامية والمنضبط بضوابطها.
- ويتبع الملاحظة السابقة التأكيد على أن التصوف الإسلامي الصحيح والحق هو تطبيق للإسلام في صورة واعية وسامية تسعى إلى تحقيق أقصى قدر من مفاهيم الإسلام

---

[1] انظر كتابنا: عزمي طه السيدأحمد، **التصوف الإسلامي، حقيقته وتاريخه ودوره الحضاري**، المؤسسة العربية الدولية للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠١٢، الفصل المعنون: سلبيات التصوف الإسلامي وإيجابياته ص ص ١١١-١٣٠.

ومضامينه وأهدافه وغاياته؛ وإذ الأمر كذلك فإن بيان دور التصوف الإسلامي الحضاري، هو في نهاية التحليل بيان لدور الإسلام حين يمارس في صورة واعية صافية سامية نقية، تكون عبادة لله سبحانه وتعالى في أعلى الدرجات الممكنة، حيث تكون روح هذه العبادة (الطاعة) الإخلاص التام له سبحانه وتعالى.

- إن إنجاز المنجزات من أجل تحقيق المشروع الحضاري للأمة، يحتاج إلى تطبيق مبدأ « دفع المضار وجلب المنافع »، وذلك بإنجاز ما ينفع الناس من المنجزات، ومعرفة الصعوبات والعقبات والتحديات التي تعيق الإنجاز وإزالتها.

وعليه سنبحث فيما يلي عن دور حضاري للتصوف الإسلامي في الجانبين؛ دفع المضار وجلب المنافع. وأبدأ بالحديث عن جانب:

جلب المنافع

- يدعّم التصوف الإسلامي الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبدين الإسلام وبالثقة بمبادئه وقيمه، الأمر الذي يجعل سلوك الصوفي كله طاعة لله وتقرباً إليه، وإذا كان الإيمان بالله لا بدَّ فيه من العمل، فإن الصوفي الحق سيكون إنساناً إيجابياً عاملاً، حريصاً على تحقيق الغاية التي خُلق من اجلها، وهي عبادة الله سبحانه من خلال القيام بمهمة الاستخلاف، هذا الذي هو عند التدقيق مساهمة كل فرد في الإنجازات الحضارية المادية وغير المادية.

يؤدي السلوك الصوفي، بما ينطوي عليه من مجاهدات في قطع المقامات الواحد تلو الآخر لتحقيق صفاء النفس، وذلك بـ « **التخلي** » عن الرذائل، و « **التحلي** » بالفضائل، إلى اكتساب الأخلاق الرفيعة العالية وتهذيب النفس الإنسانية، الأمر الذي يحقق السلام الداخلي، وتكوين الشخصية السوية الخالية من العقد النفسية أو الاجتماعية، ذلك أن التصوف الإسلامي في جوهره هو تربية صالحة ملتزمة بأخلاق الإسلام وفضائله، ومنها **الإخلاص** في إنجاز الأعمال التي توكل إلى الصوفي وإتقانها، والقدرة على تحمل المسؤولية بكل ما تتطلبه من صبر على مشاقها برضى ودون جزع أو تذمّر، والتعاون مع الآخرين في كل

عمل نافع، ذلك أن الصوفي الحقيقي إنسان إيجابي « يخدم نفسه كما يخدم الآخرين »[1]، ويفضل مصلحتهم على مصلحته الخاصة في أغلب الأحيان.

إن أحد عناصر القوة المعنوية لأي حضارة هو مدى تمسكها بالفضائل، وإن بعدها عن الفضائل ومحاسن الأخلاق يؤذن بانهيار الحضارة القائمة، وهو ما لاحظه العديد من فلاسفة الحضارة شرقًا وغربًا، مثل ابن خلدون، وآرنولد توينبي، وغيرهم، ولقد أصاب الشاعر أحمد شوقي في بيان أهمية الأخلاق في المجتمعات بقوله:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم   فاقم عليهم مأتمًا وعويلا

ولنا أن نتصور مجتمعًا غالبية أفراده متمسكون بالفضائل في سلوكهم الفردي والجماعي، إنه سيكون حينئذ مجتمعًا فاضلاً، ذلك أنه يمكن القول بشكل عام: إنه كلما زاد عدد الأفراد الفضلاء في المجتمع، اقترب المجتمع أكثر من كونه مجتمعًا فاضلاً، الأمر الذي سينعكس إيجابيًا على نشاط المجتمع وحركته في إنجاز المنجزات المادية والمعنوية.

إن الأخلاق الفاضلة هي بمثابة الخيمة التي يقع تحتها كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال أو منجزات فردية أو اجتماعية، والفضائل الأخلاقية مما يمكن أن يكتسبه الصوفي ويرسخه لديه هي صفات ضرورية لتحقيق الإنجازات الإيجابية النافعة، المادية منها وغير المادية، هذه الإنجازات التي بدونها لا يتحقق أي مشروع حضاري.

- ويتصل بموضوع التربية الأخلاقية، ما قام به التصوف الإسلامي بوجه عام في علاج الأمراض الأخلاقية النفسية والاجتماعية، وكان شيخ الطريقة – بجانب كونه المرشد الروحي للمريدين – هو بمثابة الطبيب النفسي الذي يعالج أمراض النفوس وعلل القلوب ومساوئ السلوك، وطرق الصوفية في علاج ذلك يمكن – فيما نراه – تطويرها والاستفادة منها في علاج الأمراض والمشكلات النفسية للأفراد في عصرنا.

---

[1] عبدالرحمن بدوي، **تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني**، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧١م، ص ٢٤.

• يساهم التصوف الإسلامي في **ترسيخ الهُويَّة الحضارية للأمة،** ذلك أنه حين تكون أفعال التحضر وجميع ما فيها من إنجازات تتجه نحو غاية واحدة هي تحقيق العبودية والخلافة في الأرض فإن ذلك بعد أن يحدد هُويَّة هذه الحضارة بأنها ربانية الغاية، سيرسخ هذه الهوية الإسلامية الربانية على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع.

والناظر إلى ظهور الحضارات عبر العصور، يلاحظ أنه ما من حضارة قامت وازدهرت إلا بعد أن كانت لها هويتها الخاصة الراسخة في نفوس أبنائها، رسوخاً مصحوباً بمحبة هذه الهوية التي يرون فيها سبيلهم للعزة والكرامة.

• يساهم التصوف الإسلامي في **خلق الروح المعنوية اللازمة لتحقيق الإنجاز** الحضاري المنشود، وهي روح إيجابية تنبثق من مفهومي الخلافة والعبادة عند الصوفي، إذ « يقع في نفسه أنه مندوب لأمر عظيم، وتملك عليه هذه الحقيقة نفسه حتى تصير له حالاً ملازمة في كل حين، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [**الأنعام**:١٦٢]، وعندما تحصل هذه الحال من الاستشعار الدائم لأمر الخلافة، فإن ذلك من شأنه أن يستنفر في الذات كامل قواها الذهنية والنفسية والمادية للاستجابة لمتطلبات هذا الأمر الجلل، والمضي في إنجازه بقوة. ولما كان هذا الإنجاز للتحضر لا يتأتى للإنسان باعتباره فرداً، فإن الأمر يستدعي تعبئة جماعية للجهود والطاقات حتى يَهبَّ الناس كافة للمساهمة بأقدار متنوعة في الإنجاز »[1].

إن ما ندعو إليه من خلال تأكيدنا المتكرر على أن التصوف الإسلامي الذي يستحق هذا الاسم هو التصوف القائم على تعاليم الإسلام الشرعية والأخلاقية والاجتماعية، وهو أن يمارس التصوف في وسط المجتمع وخضم الحياة – وليس في أماكن وزوايا بعيدة عن الحياة، وكأنه نوع من الرهبانية – ممارسة تحمل صاحبها إلى مقام القرب من الله حيثما كان موقعه في المجتمع، إننا ندعو ونطمح إلى تصوف إسلامي تندمج فيه الحياة العقلية

[1] عبد المجيد النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، ص٧٦.

والحياة العملية بالحياة الروحية في توازن محكم ودقيق - هو ذلك الذي رسمت حدوده ومعالمه الحكمة الإلهية المتجسدة في الإسلام - اندماجاً يبقى معه الإنسان داخلياً قابلاً لتلقي المؤثرات الإلهية والنفحات الربانية، ويعيش حياة داخلية تأملية مكثفة، لكنه يبقى في الوقت نفسه شديد النشاط في حياته الخارجية، قادراً على أن يكيف العالم ويؤثر فيه بحسب الحق المنزل من الله، لا أن يكون سجيناً فيه لا حول له ولا دور يقوم به.

إن تحقيق خلافة الإنسان في الأرض وعبادة الله فيها هما في الحقيقة وسيلة الصوفي الحقيقي إلى القرب من الله، هذان المفهومان - الخلافة والعبادة - يشملان عند التحقيق - وفقاً لمنظور الإسلام - كل عمل نافع وجاد وخيِّر، وذلك مفتاح الإنجاز الحضاري بجانبيه المادي وغير المادي، وهذه عناصر قوة معنوية ضرورية بجانب عناصر القوة المادية.

- يساهم التصوف الإسلامي في **تحقيق الحرية الحقيقة للفرد**، ذلك أن السعي الصوفي لا يقبل أن تكون الطاعة إلا لله وحده، ولا أن يكون الخضوع إلا لأمره ونهيه، وأوامر الله ونهيه، وهدايته وإرشاده التي وردت في الدين الإسلامي الذي يلتزم به الصوفي، شاملة لكل جوانب الحياة، مستوعبة لجميع مناشط الإنسان فيها، وهذا يعني أن الصوفي المسلم ليس بحاجة إلى إرشاد من خارج الدين، وليس بحاجة إلى إطاعة إنسان إلا إذا كان يأمره بطاعة الله، فترتد الطاعة طاعة لله لا طاعة لهذا الإنسان؛ وإذا كان الإنسان مطيعاً لله في كل حركاته وسكناته كان عبداً لله وحده الأمر الذي يعني بالضرورة أنه ليس عبداً لأي مخلوق أخر من البشر أو غيرهم، بل وليس عبداً لشهواته ونوازعه، لأن هذه ينبغي أن تكون منضبطة بأوامر الله ونواهيه، بل إن الأمر أكثر من ذلك، ذلك أن هذه العبودية الخالصة لله هي العزة الحقيقية للإنسان في النظرة الإسلامية بعامة والتصوف الإسلامي.

إن الحرية الحقيقية هذه، تفتح أمام الإنسان آفاقاً واسعة للإبداع، وتشكّل لديه دافعاً للإنجاز الإيجابي، لا تكون لدى الإنسان الفاقد لحريته، المستعبَد من غير الله سبحانه وتعالى.

- يستطيع التصوف الإسلامي أن يقوم بدور كبير في نشر الإسلام وقيمه السامية بين أبناء الشعوب الأخرى، وبخاصة تلك التي تعاني من نقص كبير في تلبية حاجة الروح مثل الشعوب الغربية التي طغت فيها العلمانية، ذلك أن تلبية هذه الحاجة لا تكون إلا بالتقرب من الله بالطريق الذي رسمه الله سبحانه وتعالى، وهو طريق العبادة، (أي ما افترضه من الفرائض).

إن التصوف الإسلامي بالقليل من الجهد المخلص قادر على جعل هذا الدين وقيمه السامية تشق طريقها إلى قلوب العديد من أبناء هذه الشعوب وإلى عقولهم، وتكون النتيجة أن يتحول هؤلاء المسلمون الجدد، بدلاً من كونهم أعداء، ليس إلى أصدقاء فحسب، وإنما إلى جزء من الأمة الإسلامية، يؤلمهم ما يؤلم أبناءها ويفرحهم ما يفرح أبناءها.

- قامت بعض الطرق الصوفية في الماضي بأعمال وإنجازات مختلفة، من ذلك **القيام بالتدريس المجاني وتحفيظ القرآن وتعليم العلوم الشرعية**، ومارسوا الزراعة لتلبية حاجاتهم وحاجات مجتمعاتهم القريبة، كما مارس بعضهم الحرف اليدوية المختلفة، إضافة إلى ممارسة التجارة غير الجشعة، فكانوا افراداً إيجابيين، ومثل هذه الأعمال هي أعمال حضارية وتساهم في ترسيخ الحضارة واستمرارها، واليوم، حين يكون أصحاب المهن المختلفة صوفية حقيقيين، فإنهم - كل في موقعه - يساهمون بإيجابية عالية في النهضة الحضارية للأمة، وبدرجة أعلى مما لو كانوا يمارسون هذه المهن دون ان يكون لديهم روح التصوف الحق.

- يقوم التصوّف الإسلامي **بتوضيح وتوطيد العلاقة بين الإنسان والغيب** ويحدد، من خلال تعاليم الإسلام، طرق التعامل مع هذا الجزء من أجزاء الوجود، كما يساعد على زيادة وعي الإنسان بالبعد الغيبي لنشاطاته المختلفة، الأمر الذي يترتب عليه تحقيق السلام الداخلّي الحقيقي لدى الفرد مع الله ومع الكون الطبيعي ومع النفس، ويساهم التصوّف الإسلامي أيضـاً في تحقيق التوازن بين حاجات الإنسان المختلفة باختلاف

عناصر كيانه: بين حاجات الجسد والروح والعقل والوجدان، وكذلك تحقيق التوازن بين حاجات هذا العالم الدنيوي وحاجات العالم الأخروي.

وبعد؛

فإن معظم ما تقدم توضيحه من أمور إيجابية فيها « جلب للمنافع » هي أمور في جملتها وأغلبها أمور معنوية يحتاجها الإنجاز في جانبيه المادي وغير المادي، ولا يكون الإنجاز مثمراً بدونها، وإذا كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كان لهذه الأمور – المتقدم بيانها – دور هام في قيام المشروع الحضاري للأمة.

* * *

دفع المضار

بعد ما تقدم بشأن الأمور التي أطلقنا عليها « جلب المنافع »، سنرى ما يمكن أن يقوم به التصوف الإسلامي في مواجهة العقبات والتحديات التي تواجه المشروع الحضاري للأمة وتعيق الإنجاز في عدد من جوانبه، وهو ما أطلقنا عليه عنوان « دفع المضار »، وبعض هذه العقبات والمعيقات قائم في داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وبعضها يرجع إلى معيقات خارجية أو أخطار من دول ومجتمعات معادية.

سنبدأ بذكر بعض:

المعيقات الداخلية

من أخطر المعيقات الداخلية التي تواجه المشروع الحضاري للأمة، **الخلافات والنزاعات بين فئاتها المختلفة**، الأمر الذي يبدد طاقات الأمة وطاقات الأفراد، ويعيق الإنجاز الحضاري، ويستطيع التصوف الإسلامي أن يساهم في التقليل من حدة الخلافات بين فئات المسلمين، بما يبثه من روح التسامح من جهة، وبسبب تركيز النظر والفكر على الغاية القصوى من جهة أخرى، هذه الغاية التي تتصاغر عندها الأهداف الخاصة لكل فئة من فئات المسلمين الذين تجمعهم عقيدة التوحيد.

إن الحد من شدة الخلافات بين فئات المسلمين وفرقهم في هذا العصر، أمر واجب على الجميع، وعلى كل فريق أو فرقة أن تبذل جهدها من أجل ذلك، والمشروع الحضاري للأمة لا يمكن أن تتحقق مراحله الأولى إذا لم يكن هناك حد أدنى من الخلاف وقدر أكبر من التوافق والتعاون وتضافر الجهود، والتصوف الإسلامي يساهم بنصيب - حسب ما نراه - في تحقيق هذا المطلب الرئيس.

- من الأمور الداخلية التي تنخر في المؤسسات المختلفة في البلاد الإسلامية **داء الفساد**، وهذا الداء المعيق لأي إنجاز حقيقي في المجتمع، يرتد إلى جانب الأخلاق، لقد رأينا - فيما تقدم - كيف أن الأخلاق الفاضلة التي يرسخها السلوك الصوفي لدى الأفراد يعين على أن تكون إنجازات المجتمع أكثر ثمرات وجدوى، أما الفساد المستشري في المجتمعات العربية والإسلامية وما يلزم عنه من ظلم للآخرين وهدر لطاقات الأمة، فإن التصوف الإسلامي بما يرسخه من قيم أخلاقية سامية بعيدة عن قيم الفساد السلبية - كالغش والظلم والنفاق وأكل المال الحرام وغير ذلك من هذه الرذائل - يستطيع ليس محاربة الفساد فحسب، ولكن عدم حدوثه من البداية، فالصوفي المتخلق بأخلاق الإسلام لا يسمح لنفسه ولا لغيره بالوقوع في هذا الفساد.
- يستطيع التصوف الإسلامي **التخفيف إلى درجة كبيرة مما يشاهد اليوم من عنف وتوحش** تمارسه جماعات مختلفة تجعل من انتسابها للإسلام المبرر الشرعي لهذا العنف، الذي هدد ولا يزال يهدد المجتمعات بالخراب والدمار، والذي يمنع كل إنجاز حضاري مأمول، بل لقد وجدناه يدمر المنجزات الحضارية التراثية في بعض البلدان الإسلامية.

والتصوف الإسلامي الذي يقوم على التسامح بمختلف أشكاله وخصوصاً التسامح الديني والعقيدي، الذي لا يجعل الاختلاف في الانتماء إلى مذهب فقهي أو عقيدي حجة لمعاداة المخالف أو تكفيره أو محاربته، يساعد على ذلك ما يتعلمه الصوفي من

اخلاق سامية تنضح بالتعاطف والتعاون والمحبة وعدم التعصب للفرقة أو المذهب، إذ هي أخلاق يحبها الله ورسوله، ويمارسها الصوفي طاعة لله وتقرباً إليه.

إن التربية الصوفية – إضافة لما تقدم – تنظر إلى الناس على اختلافاتهم على أنهم أخوة في الإنسانية، كلهم لآدم وآدم من تراب، ولهذا تتلاشى عندهم **العنصرية البغيضة** بكل أشكالها؛ العرقية والطائفية والعشائرية، وهذا يسهل أمر التعاون المطلوب للإنجازات المختلفة.

المعيقات الخارجية

بجانب هذه المعيقات الداخلية، قام التصوف الإسلامي ويقوم بدور بارز وملموس في مواجهة المعيقات والتحديات الخارجية التي تعيق الإنجازات الحضارية للأمة، ونشير فيما يلي إلى أبرزها:

- **الغزو العسكري الخارجي**

ابتكرت الطرق الصوفية فكرة المرابطة على ثغور الدولة الإسلامية وإنشاء الرباطات فيها، وكان المرابطون (الصوفية) بمثابة خط الدفاع الأول للدولة الإسلامية، يتصدون لأية هجمات أو اعتداءات على حدودها، فكان الصوفية المرابطون على الثغور يمارسون نشاطهم الديني والروحي، لكنهم كانوا على أهبة الاستعداد للدفاع عن حمى الإسلام، وعلى استعداد للشهادة في سبيله. وقد كان لهؤلاء المرابطين تنظيم جيد ومنضبط، فلم يكن عملهم عشوائيـاً أو فرديـاً، وقد انتشرت هذه الرباطات من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه[1].

وقد كان للعديد من الطرق الصوفيّة في القرنين الأخيرين دور بارز في التصدي للاستعمار الغربي وجيوشه التي غزت بلاد المسلمين كالدور الذي قام به المهدي وأتباعه في السودان والذي قامت به السنوسية في شمال أفريقيا، وبعض أصحاب الطرق في بلاد الشام وفلسطين وليبيا والمغرب وغيرها.

---

[1] عبدالرحمن بدوي، **تاريخ التصوف الإسلامي**، ص ص ٢٦ -٢٧.

واليوم، وقسم غير قليل من بلاد المسلمين يتعرض للاحتلال أو الاعتداء العسكري من دول استعمارية خارجية، لا مناص للأمة في مواجهة ذلك من الاستعانة بمعين القوة المعنوية الذي توفره التربية الصوفية الصحيحة، **وإحياء مفهوم المرابطة وتطويره ليشمل كل أشكال مواجهة هذه الاعتداءات الخارجية** التي لم تعد مقصورة على الاعتداء على الثغور، ولنا في المرابطين في المسجد الأقصى الشريف مثال يمكن الاحتذاء به بحيث يشمل كل أنواع مواجهة الاعتداءات الخارجية ومقاومتها، ونرى أن هذه القوة المعنوية نحتاج إلى إكسابها لجيوشنا العربية والإسلامية، ليصبح دفاعهم عن أوطانهم، ليس مجرد واجب عسكري فحسب، وإنما هو أيضاً واجب ديني وشرعي وتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

إنه لن يحصل أمان في المجتمع إذا كان عرضة للاعتداءات الخارجية عليه دون أن يكون قادراً على ردعها ومواجهتها، وحين لا يكون أمان في المجتمع فإن الإنجاز الحضاري سيكون في أدنى درجاته إن لم يكن معدوماً.

- **الغزو الفكري والثقافي والإعلامي**

هذه الأشكال من الغزو تواجهها الأمة الإسلامية منذ بدايات تطلعاتها الحديثة للنهوض منذ حوالي قرنين من الزمان، وهي تتخذ أشكالاً وأساليب متعددة في ضوء تطور الزمان وتقدم الوسائل التقنية الحديثة، لكن حدَّة هذا الغزو لم تقل، بل ازدادت مؤخراً ضراوة وشراسة.

ولعل أشد أساليب الغزو هذه، هو تلك التي تتم بأيدي أبناء الأمة ومعونتهم، هؤلاء الذين يتبنون مقولات الغزاة في هذه المجالات ويشيعونها بين أفراد مجتمعاتهم سواء أكان ذلك عن قناعة أم كان مدفوعاً بمصالح وقتية دنيوية، ذلك أن هذه الفئة قد تملك من الأساليب والإمكانات، بسبب انتمائها للأمة الإسلامية، ما تستطيع معه خلط الحق بالباطل وتسهيل هذا الغزو متخفية بأقنعة من الدين والتراث والمصلحة العامة وغيرها من الأقنعة المحلية.

والغزو المشار إليه، في مجالات الفكر والثقافة والإعلام، هو محاولة اعتداء من الغازي (وهو هنا الحضارة الغربية بعامة ومعها الصهيونية العالمية) بقصد الهيمنة والسيطرة وتحقيق التبعية، أعني تبعية المعتدى عليه للغازي في هذه المجالات.

فالغزو الفكري غزو في مجال الأفكار النظرية في المجالات العلمية المختلفة وخصوصاً الإنسانيات؛ والغزو الثقافي هو غزو في مجال الثقافة، أي مبادئ وطرق وكيفية تعامل الإنسان في هذه الحياة مع جوانب الوجود المختلفة[1]؛ والغزو الإعلامي هو غزو في مجال نشر الأخبار والمعلومات وتفسيراتها وتأويلاتها بحيث يقنع الغازي المغزو إعلامياً بوجهات نظره في تفسير الأحداث وخلق رأي عام نحو قضاياه الخاصة به. إن العالم كله اليوم يشكو من الغزو الإعلامي الأمريكي الصهيوني...

أما ما يساهم به التصوف الإسلامي في التحصن ضد هجمات هذه الأنواع من الغزو وفي مواجهتها، فنقول في ذلك:

مواجهة الغزو الفكري

يغرس التصوف الإسلامي في نفوس الصوفية إيماناً راسخاً بعقيدة الإسلام وحقائقها، أي باعتقاد صوابها، الأمر الذي يلزم عنه أن إنشاء أية أفكار على يد أبناء الأمة ينبغي أن يبنى على هذه العقيدة ويشتق منها، وأيضاً أن أية أفكار تأتي من خارج الأمة ينبغي لقبولها أن تكون غير متعارضة مع هذه العقيدة، فالعقيدة هنا تقوم بدور الموجه لإنجاز الأفكار من جهة إذ تقدم أساساً راسخاً من الحق والمقدمات، وتقوم من جهة أخرى بدور الحاكم أو المعيار على الأفكار الأخرى المعروضة أو الوافدة، فلا يسمح الفرد صاحب العقيدة الراسخة لنفسه أن يقبل بآراء تتعارض مع عقيدته، وهو في ضوء هذه العقيدة قادر أيضاً على نقد هذه الأفكار...، هكذا تقوم العقيدة الراسخة بمهمتي التحصين والمواجهة للغزو الفكري الذي تتعرض له الأمة في الوقت نفسه، فيسهل بذلك إنجاز الافكار الأصيلة في مختلف المجالات.

---

[1] الثقافة عندنا هي: **معرفة عملية مكتسبة تنطوي على جانب معياري وتتجلى في سلوك الأفراد الواعي في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود بأجزائه المختلفة**. انظر في ذلك كتابنا: عزمي طه السيد أحمد، **نظرة جديدة للثقافة، ومدخل إلى علم ثقافة إسلامي**، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٥م، ص ص ٦٩ –٨١.

مواجهة الغزو الثقافي

إذا كان التصوف الإسلامي لا يتم بغرس العقيدة الراسخة في قلب الصوفي فحسب، بل لا بد أن يكون سلوكه كله طاعة لله وعبادة له وفقـًا لشريعة الإسلام، لا يخرج عنها إلا إلى سلوك مباح ضمن ما تبينه هذه الشريعة، فإن الغزو الثقافي - بالمعنى الذي أشرنا إليه آنفـًا، وهو محاولة فرض طرق تعامل الإنسان مع الوجود من حضارة غير إسلامية على أبناء الأمة المسلمة لتحل محل طرق التعامل الإسلامية التي يستمدها المسلم والصوفي المسلم من الشريعة الإسلامية - إن الغزو الثقافي سيجد لدى الصوفي المسلم سداً منيعـًا وسوراً حصينـًا لا يمكن اختراقه، لأنه ملتزم بالسلوك الإسلامي في تعامله مع جوانب الوجود التزام إيمان وقناعة، التزامـًا يشعر معه أنه به يتقرب إلى الله، فيرفض بقوة أي سلوك لا أصل له فيما شرعه الله من أعمال ومعاملات، بل وينفر منه، وإذا ازداد تعرضه له - كما يحدث في عصرنا هذا بسبب تقدم وسائل الاتصال والإعلام - فإنه على استعداد لمقاومته بشتى السبل المتاحة له؛ وهكذا يقوم التصوف الإسلامي أيضـًا بمهمتي التحصين والمواجهة لهجمات الغزو الثقافي، الأمر الذي يسهل مهمة الإنجاز الحضاري.

مواجهة الغزو الإعلامي

أما هجمات الغزو الإعلامي الشرسة في هذا العصر ومواجهتها، المزودة بأحدث الأساليب والتقنيات العالية، فإن التصوف الإسلامي قادر على المساهمة في الأمرين معـًا، التحصين والمواجهة، ويأتي ذلك نتيجة لعدد من الأوامر والتوجيهات الشرعية التي يلتزم بها المؤمن بعامة والصوفي المسلم بخاصة - وذلك من باب أولى لكونه مؤمنـًا ملتزمـًا بالشريعة - فالمؤمن والصوفي المسلم مطالب أن لا يقبل الأنباء والأخبار التي يسمعها على عواهنها وكما هي دون نقد أو تمحيص يصل إلى درجة التيقن من صدق الخبر أو كذبه أو تحريفه، وهذا التوجه الإلهي في هذه المسألة متضمن في صريح قول الله سبحانه وتعالى الواضح: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات:٦]، هذا التوجيه يدفع عن المسلم إذا مارسه وعن الأمة كذلك أثر التوجيه الإعلامي المغالط أو الكاذب أو المتحيز، وهي صفات موجودة في الإعلام الغربي الصهيوني بعامة، حيث لا تنقل الأخبار نقلاً موضوعيـًا يصف ما حدث كما حدث، وهكذا فالمؤمن والصوفي المسلم يتثبتون من « الأنباء » بكل وسائل التثبت الممكنة وبالتالي لا يقعون تحت

تأثير الإعلام المتحيز الكاذب والمغالط، ولا يتأثرون في سلوكهم واتجاهاتهم إلا بالأنباء والأخبار التي تثبت لديهم، وبمثل هذا « الشك المنهجي » في قبول الأخبار بعامة وأخبار الفاسقين بخاصة – ومن باب أولى أخبار الأعداء – يبني المسلمون حصونهم الداخلية في مواجهة هذه الهجمات الإعلامية، ويقومون بمواجهتها، إذ إن فعل التثبت هو في جوهره عملية نقد لبيان الصادق من غير الصادق من الأنباء.

ثم إن الصوفي المسلم، الذي هو مؤمن ملتزم بدينه، تتكون لديه ملكة خاصة نتيجة لسلوكه القويم المتواصل وحرصه على ذلك باستمرار، يستطيع بوساطتها أن يميز الحق والصواب من غيره في الأفعال والأقوال بصورة مباشرة وللوهلة الأولى، وهذه الملكة هي الفِرَاسَة، وفيها قال رسول الله ﷺ: « **اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله** »[1]، وقد تكلم الصوفية في الفِراسة[2]، وعدّوها من علامات صدق الإيمان وصحة السلوك في التقرب إلى الله وهي عندهم « على حسب قوة الإيمان، فكل من كان أقوى إيمانـاً كان أحدُّ فراسة »[3]، والفراسة – كما أشرنا آنفـاً – ملكة يتم بها إدراك مباشر، يمكن أن يُدرج تحت مصطلح الحدس، لكنه أدنى درجة من المشاهدة، فالصوفية يرون أنه « إذا صحت الفراسة ارتقى صاحبها إلى المشاهدة »[4]؛ إن هذه الفراسة التي يتمتع بها الصوفي المسلم – التي تساهم ممارسة التصوف الإسلامي في اكتساب الأفراد لها – تساعد في كشف حقيقة الإعلام الموجه إلينا من قبل الآخرين ومعرفة مقاصده وغاياته، الأمر الذي يترتب عليه إبطال آثاره السلبية، ومنها إعاقة الإنجاز.

ثم إن الصوفي المسلم الذي يعرف أهدافه القريبة المتمثلة في التقرب إلى الله بالقيام بالطاعات والعبادات، ويعرف الغاية من وجوده وهي تحقيق العبودية لله سبحانه تعالى بتحقيق شروط الخلافة في الأرض، يستطيع في ضوء هذه المعرفة أن يواجه الإعلام المغرض والغزو الإعلامي، حيث تشكل هذه المعرفة لديه معياراً للتمييز والنقد، فيرفض ما يخالف هذه الأهداف وهذه الغاية ولا يقبلها، فتقل آثارها السلبية إلى درجة كبيرة إن لم تبطل تماماً؛

---

[1] غالبية الباحثين على أن إسناد هذا الحديث ضعيف أو ضعيف جداً. وقد رواه الترمذي في جامعه ٣١٢٧ وغيره، وقالوا لا يصح عن ﷺ وإن كان المعنى صحيحـاً.

[2] انظر: القشيري، **الرسالة القشيرية**، باب الفراسة، ص ص ٢٦٦-٢٧٥.

[3] المصدر السابق، ص ٢٦٦.

[4] المصدر السابق، ص ٢٧٤.

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، فربما دفعه شعوره بخطورة هذا الغزو إلى العمل الإيجابي لبيان الحق للناس مقابل ما يقدمه هذا الغزو الإعلامي من باطل، فتكون المواجهة أقوى وأمكن، ويصبح الطريق إلى الإنجاز الحضاري سالكـاً دون عقبات معيقة.

- **أخطار العولمة المعاصرة**

العولمة المعاصرة: هي عولمة غربية الثقافة (وهي ثقافة تسودها العقائد العلمانية)، أمريكية القيادة، صهيونية الغايات؛ هذه العولمة التي تسعى إلى رفع كل الحواجز أمام جعل العالم يسير على نظام واحد في الاقتصاد والاجتماع والثقافة وكل مناحي الحياة هو النظام السائد في الغرب، وعلى وجه الخصوص في أمريكا، والذي خططت له الصهيونية العالمية.

وقد اتخذت العولمة أكثر من شكل، فهناك العولمة الاقتصادية، وهناك العولمة السياسية، وهناك العولمة الثقافية.

مواجهة العولمة الاقتصادية

أما **العولمة الاقتصادية** التي أبرز مظاهرها وغاياتها تشجيع الاستهلاك من قبل الدول الفقيرة أو الدول غير الصناعية التي يدخل ضمنها بدرجات متفاوتة دول العالم الإسلامي، غول الاستهلاك الذي بدأ ينشب أنيابه في جسد الأمة الإسلامية، يستطيع التصوف الإسلامي أن يواجهه بأحد المفاهيم الأساسية فيه، وهو مفهوم الزهد، والزهد هو التقلل في المأكل والملبس والمشرب ومتع الحياة وزينتها الكمالية مع القدرة على ذلك، والصوفي يمارس ذلك كخطوة على طريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، هذا السلوك الزهدي ينصب على جانب ما يُسمى « الكماليات » من الأشياء والمنتجات، وهذه هي التي يتفنن المجتمع الغربي الرأسمالي في ابتكار الأشكال المتعددة منها ويجتهد في تزيينها في أنظار الناس ليقبلوا على شرائها، وهي في الغالب باهظة التكاليف، والإنسان الحكيم يجد عند النظر في مدى الحاجة إليها أنه بإمكانه الاستغناء عن قدر كبير منها، وهو حين يفعل ذلك، صوفيـاً كان أم حكيمـاً، إنما يوفر على نفسه وعلى مجتمعه الكثير من الثروة التي يمكن أن تذهب سدى وبلا جدوى، ولننظر – كمثال على ذلك – إلى ما يستهلكه الناس في التدخين على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع، وهي ثروة تحرق، فضلاً عما يلحق بالناس من أضرار صحية، هذه الثروة المحروقة يمكن أن تعالج إحدى المشكلات الرئيسة في المجتمع كليـاً أو جزئيـاً، مثل التعليم أو الصحة أو الفقر أو البطالة..، وقل مثل ذلك فيما ينفق على الطعام والشراب والملبس والمساكن مما هو فوق الحاجة بقدر كبير.

إن الزهد بمعنى الاعتدال في الإنفاق، يمثل لدى الصوفية المسلمين ولدى الأمة الإسلامية سلاحـًا قويـًا يمكن أن يواجه به جانب من جوانب العولمة لا يستهان بخطره وشره، وهو جانب الاستهلاك الذي لا منفعة منه، والذي في مجاراته والسير خلفه ضرر محقق، بل إننا نزعم أن الزهد - كما طور مفهومه الصوفية المسلمون - هو السلاح الأمضى في مواجهة هذا الجانب من العولمة الاقتصادية الأمر الذي يجعل الطريق إلى الإنجاز وتحقيقه أيسر بكثير.

ونذكر هنا قول إبراهيم بن أدهم (ت ١٦٢هـ) حين قيل له إن اللحم قد غلا، فقال: أرخصوه (أي لا تشتروه) وأنشد:

وإذا غـلا شـيء علـي عدمتـه فيكـون أرخـص مـا يكـون إذا غـلا[1]

مواجهة العولمة السياسية

أما جانب **العولمة السياسية** التي غايتها إخضاع دول العالم إلى سياسة واحدة هي في الوقت الراهن السياسة الأمريكية، هذه التي عبرت صراحة - على لسان القائمين عليها - عن هذه الغاية بأسلوب صريح واضح، لكنه يفيض غطرسة وتكبراً وتبجحا بالقوة المادية وليس بقوة الحق؛ إن التصوف الإسلامي يستطيع أن يساهم في مواجهة مثل هذه السياسة - إذا ما سنحت له الفرصة - ذلك أن الصوفي يعرف من جهة أهدافه وغايته، فلا يساوم عليها، وهو من جهة أخرى يتمتع بقدر كبير من الأخلاق السامية وبقدر كبير أيضـًا من الصبر والتسامح وسعة الصدر، وهي أمور تتيح له إقامة الحوار مع الآخر، والتأثير فيه بدرجة أكبر من الآخرين الذين لا يملكون هذه الصفات، هذا فضلاً عن إيمانهم بأنهم على الحق الذي يعطي لحججهم قوة لا بد أن تؤتي ثمارها، على أن العولمة السياسية قد لجأت إلى فرض سياساتها بالقوة بأشكالها المختلفة بما في ذلك القوة العسكرية، وفي هذه الحالة يستطيع التصوف أن يساهم في مواجهة القوة العسكرية بما لديه من قوى معنوية - كما تقدمت الإشارة - باستخدام مفاهيم المرابطة في سبيل الله والاستشهاد في سبيل الله، وهي مفاهيم تشكل عند الصوفي المسلم أقصر الطرق إلى الله سبحانه وتعالى. وهكذا يستطيع التصوف الإسلامي التقليل من إعاقة هذه العولمة للإنجاز.

---

[1] القشيري، **الرسالة القشيرية**، دار السلام، ط ٣، القاهرة، ص ١٠.

مواجهة العولمة الثقافية

أما **العولمة الثقافية** فهي في جوهرها غزو ثقافي متطور ومزود بأحدث الأساليب كوسائل الإعلام والاتصال الحديثة، ويستخدم وسائل متنوعة، منها اللجوء إلى مؤسسات الأمم المتحدة ومنظماتها ومؤتمراتها العالمية، مثل مؤتمرات السكان، والمرأة، والطفولة، ومؤتمرات منظمة اليونسكو وغيرها، والواقع أن التصوف الإسلامي من خلال الإيمان الراسخ بعقيدة الإسلام، والاتباع الملتزم والواعي بشريعة الإسلام، يساهم – كما تقدم في كلامنا عن مواجهة الغزو الثقافي – مساهمة فعالة في التحصن ضد هذه العولمة الثقافية البعيدة في غالبية جوانبها عن شريعة الإسلام، والمؤسسة على عقائد علمانية دنيوية لا تهتم بالأديان المنزلة وتنظر إلى تعاليمها نظرة ازدراء، وتصفها بالتخلف وغير ذلك من الأوصاف المستشنعة، والصوفي المسلم لا يقبل شيئاً من هذا، وهو على استعداد للتضحية في سبيل مقاومته والحفاظ على ثقافته وتعامله مع الوجود بأجزائه المختلفة المستمد من شريعة الإسلام والمؤسس على عقيدته. وغاية ما في الأمر هنا أن التحصن والمقاومة لهذه العولمة الثقافية تحتاج إلى عزيمة أقوى وإرادة أكثر صلابة.

والواقع أن العولمة الثقافية تجاوزت كل حدود اللياقة الأخلاقية حين بدأت تطالب الدول الإسلامية بتغيير مناهجها الدينية، وقامت هي بوضع مناهج التعليم الديني لهم ليمارسوها في مجتمعاتهم، وفي هذا ما يثير العجب الذي لا حدود له: حضارة لا تتمسك بالدين بعامة، ولا تعرف حقيقة الإسلام، وتريد أن تعلم أهل الإسلام حقيقة الإسلام وكيف يكون!! لقد قيل في الأمثال السائرة: فاقد الشيء لا يعطيه؛ لكنه في عصر العولمة نجد العولمة الأمريكية تريد أن تعطي الإسلام الذي لا تملكه ولا تعرفه للمسلمين الذين عاشوا دينهم ومارسوه على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً...؛ والحق أن الإسلام عقيدة وشريعة، هو خط الدفاع الأخير لهذه الأمة، واختراقه لم يكن يوماً أمراً يسيراً، بل إن شعور الأمة الإسلامية – وليس الصوفية فحسب – سيقوى باتجاه الحفاظ على هذا الدين والتضحية في سبيله، إذا ما شعروا أن هذا الدين في خطر، لأنه عندهم دين الله والتضحية في سبيله تضحية في سبيل الله وتقرب إليه.

وهنا – مرة أخرى – نرى أن التصوف الإسلامي يستطيع التقليل من خطر هذه العولمة الثقافية التي هي واحد من العوائق التي تعيق الأمة عن الإنجاز الحضاري المأمول، وتجعل تحقيقه أيسر منالاً.

إجمال وخاتمة

اجتهدنا – فيما تقدم – في بيان ما يمكن أن يساهم به التصوف الإسلامي الصحيح من دور حضاري، أي المساهمة في تسهيل إنجاز المنجزات أو إنجازها، وقصدنا منه – في جانب – إلى تنبيه المشتغلين بالتصوف الإسلامي والمنتسبين إليه، إلى أنهم ينبغي أن يكون لهم دور إيجابي في الحياة الجماعية وفيما تسعى الأمة إليه من قيام مشروع حضاري نهضوي، وأن لا يكتفوا بتحقيق سلامهم الداخلي الفردي والترقي الروحي فقط، ذلك أن بإمكانهم فعل الأمرين معـًا، « فخير الناس أنفعهم للناس »، ويدخل في هذا المعنى كل من يساهم بإنجاز نافع، ماديـًا كان أو غير مادي.

كما قصدنا – في جانب آخر – إلى تغيير النظرة السلبية لغير الصوفية إلى التصوف الإسلامي الصحيح، بالقول إنه ظاهرة تمتلك طاقات روحية ومعنوية، وأخلاق عالية سامية ينبغي استثمارها في المشروع الحضاري للأمة، هذا المشروع الذي يحتاج إلى تضافر كل جهود شرائح المجتمع وأفراده على ما بينهم من اختلافات، فالهدف الاسمى للأمة ولمشروعها الحضاري ونهضتها هو ما ينبغي أن يجمعهم ويوحِّد جهودهم.

إننا لا نقول – بطبيعة الحال – إن أعباء الإنجاز في المشروع الحضاري للأمة تقع على عاتق شريحة الصوفية وحدهم، لكننا نؤكد على ضرورة أن يكون لهم دور إيجابي فيه، وأن لا ينظروا لأنفسهم على أنهم جماعة متميزة منعزلة عن شرائح المجتمع الأخرى، وأنه لا شأن لهم بقضايا الأمة الكبرى ومشروعها الحضاري.

وأخيراً، إن روح هذه الورقة دعوة إلى تخليص الحركات الصوفية من السلبية والفردية، وإلى أن تركز جهودها التربوية والتزكوية والروحية على الجوانب الإيجابية، كالتعاون مع الآخرين على البر والتقوى والعمل الجماعي المخلص مشاركة في إنجاز المنجزات التي يحتاجها مشروع النهوض الحضاري.

والله ولي التوفيق

جلال الدين الرومي

د. محمد كورماز

الحمدلله الذي أنزل كتابه كاملاً، وأرسل نبيه بشيرا ونذيرا للحق ناقلاً، فكان حفظ كتابه في كتابه، وعلامة ذلك في كثرة طلابه، وتنافس كل عليه رغبة في نيل ثوابه، و حفظ أمة حبيبه من الاجتماع على ضلالة، وجعل لها منهجاً للعودة وإن كان لها في الغي إطالة والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى ﷺ وبعد ..

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال حفظه الله (أو مندوبه)

معالي الدكتور محمد أبو حمور الأمين العام لمنتدى الفكر العربي وأعضاءه الكرام

سعادة المهندس مروان الفاعوري أمين عام المنتدى العالمي للوسطية واعضاءه الكرام

السادة العلماء الأجلاء

طلبة العلم الشريف

الحضور الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا يسعني ابتداء إلا التقدم بالشكر الكبير للسادة في المنتدى العالمي للوسطية وممنتدى الفكر العربي على دعوتهم الكريمة، وعلى اهتمامهم بمثل هذه الموضوع، الذي قد يكون باعتقادي من أهم مواضيع الساحة الإسلامية اليوم ..

ولكن وقبل أن نصل إلى الساحة الإسلامية اليوم دعونا نعد قليلاً إلى الوراء، لنحاول فهم المقدمات التي ولدت هذه النتائج ..

عندما فتح الله البلاد للمسلمين، وابتعدوا عن دار الهجرة في مدينة رسول الله، رأوا دنيا لم يعهدوها من قبل، فرأوا من الذهب والفضة الكثير، وشاهدوا الغنى الذي لم يكونوا يتصورونه، خاصة عندما فتحوا بلاد حوض المتوسط، وفتحوا ما بين دجلة والفرات فرأوا

من الزراعات ما يثقل العقل، ورأوا في مصر من التجارة و أساليب الرفاه ما لم يعهدوه من قبل، فبدأ المسلمون يعيشون في راحة وتنعم لم يعرفه الجيل الأول، جيل عصر السعادة ودار الهجرة .

وخرج من بين هؤلاء المتنعمين مجموعة من الناس يحنون إلى روح المدينة المنورة، فتذكروها واستحضروها، فتاقت قلوبهم إلى صفاء النفس في جنباتها، وأيقنوا أن مثل هذا لا يحدث إلا بالرجوع إلى حال النفس هناك، حال البعد عن هذا التنعم الذي غرق فيه المسلمون، فصاروا حماة روح المدينة مقابل توجه الأمة نحو الدنيوية والمادية، فكان أولئك أول الزهاد .

هاجم أولئك الزهاد الأمراءو الفقهاء والمتكلمين والمحدثين، وانتقدوا بطش الأمراء وظاهرية الفقهاء وجدلية المتكلمين وروائية المحدثين، وأرادوا الرجوع إلى التركيز على الجوهر وإصلاح الباطن، وحدثت بينهم نقاشات وجدالات كثيرة منها ما أرسله العمري حفيد سيدنا عمر بن الخطاب إلى ابن أبي ذئب وإلى الإمام مالك رحمهم الله جميعـًا، وأكثر عليهم القول ودعاهم إلى ترك الميل للدنيا ولبس الرقيق من الثياب، وترك دعوة الناس إلى التوسع في الدنيا، بل دعاهم إلى اعتزال الناس والتفرغ للعبادة، فرد عليه أبن أبي ذئب رداً شديداً، أما الإمام مالك فرد عليه ردا لطيفـًا حكيما فقال :

"إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر" .

وقد جاء الزهاد أيضـًا إلى الإمام محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة فطلبوا منه أن يؤلف كتابا في الزهد فقال والله قد فعلت . فقالوا : أين ؟ قال : قد كتبت كتاب البيوع .

وهو بهذا يشير إلى عدم انفصال الزهد عنده عن الحياة بل هو العيش في الحياة وبين الأموال دون تعلق القلب بها رحمه الله . وحركة الزهاد هذه تحولت إلى ما نعرفه اليوم

بالصوفية وكانت الانطلاقةَ نحو تراث كامل من الحركات الصوفية والطرق الصوفية، ومن الطريف أن البعض يقول أن الصوفية هي نسبة للصوف الذي كان يلبسه الزهاد، مع أن الصوفية أساسا وخاصة في ذلك الزمن كانت تدور حول ما تجردت منه لا ما لبسته، لكن ومع مرور الوقت، أصبح الناس يركزون على ما لبست لتكون زاهدا، لا على ما تجردت منه.

ولو أننا ركزنا على تعاريف التصوف في ذلك الوقت المبكر نسبيًا، لوجدنا أنها تدور حول ارتقاء الإنسان من البشرية إلى الإنسانية، ومن الإنسانية إلى كمال الإنسانية، وتركز على غاية التصوف من الترقي في مراتب الإيمان والإحسان، وتحصيل الإخلاص والأدب والأخلاق العالية .

فالإمام الكرخي (٢٠٠ هـ) يقول : التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في يد الخلائق.

وبشر الحافي (٢٢٧ هـ) يقول : الصوفي من صفا قلبه لله .

وأبو حفص الحداد (٢٦٥هـ)يقول : التصوف كمال الأدب .

وسحنون المحب (٢٩٧ هـ) يقول : التصوف ألا تملك شيئًا، ولا يملكك شيء.

وهكذا كانت حركة الزهد في ذلك الوقت تركز على فكرة الوصول إلى حقائق الأعمال والاعتقاد،بدلا من التركيز على هيئتها وشكلها، وكانت تنمو بشكل موازٍ للحركة الفقهية والعقدية، إلا أنها بدأت تنتج منهجها ومفاهيمها وأصولها في القرن الثاني والثالث الهجري، فقد رأوا أن علم الكلام يركز على المعرفة دون العمل، وأن الفقه يركز على العمل دون المعرفة، فعلم التصوف إذن هو العلم الذي لا يركز على شكل العمل بل على معنى العمل، ولن يركز على هيئة الاعتقاد ونصه، بل على المعنى الذي يدور حوله الاعتقاد، فقالوا مثلاً أن معرفة الله لا تعرف بالاستدلال، بل تعرف بالتجربة، وهو ما سموه بالاستبصار . فإذا كان الفقه هو الإسلام، وإذا كان الكلام هو الإيمان، فالتصوف هو الإحسان (قال وما الاحسان ؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فأنه يراك).

إذن فقد هجم المتصوفة على شكلية الفقهاء وجدلية المتكلمين وروائية المحدثين، وهذا النقد كان له أصداؤه حتى على الإمام الغزالي في المنقذ من الضلال، لكن وبطبيعة الحال مال الزهاد أحيانا إلى الإفراط أو التفريط، فبعضهم سلك مسلك الإباحة المطلقة، وبعضهم مسلك مسلك التشديد الصارم، حتى جاء الجنيد رحمه الله . وأنشا التصوف القائم على الكتاب والسنة .

عرف الجنيد رحمه الله التصوف:

" بأن تكون مع الله بلا علاقة، ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع"

"الصوفي كالأرض؛ يرزح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح "

"التصوف أن يختصك الله بالصفاء ..فمن صفّي من كل ما سوى الله فهو صوفي "

"الصوفي من أحس في قلبه السلامة من الدنيا كما أحسها قلب إبراهيم،وكان تسليمه كتسليم اسماعيل، وحزنه كحزن داود، وفقره كفقر عيسى، وشوقه كشوق موسى، واخلاصه كاخلاص محمد ﷺ "

فكان الجنيد رحمه الله علامة فارقة في تاريخ التصوف، وهو صاحب المقولة المشهورة: لو رأيتم الرجل يطير في السماء ويمشي على الماء فلا تعبؤوا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، ومشى على منهجه الذي يمكننا أن نسميه بمنهج التصوف الراشد معظم المتصوفة والزهاد إلى يومنا هذا.

لقد كان للتصوف أثر كبير في الدعوة إلى الإسلام فبلادي بلاد الأناضول لما كانت في أيدي البيزنطيين، بعث أحمد اليسوى من أسيا الوسطى دراويشه إلى هناك ليعلموا الناس الإسلام فكان تمهيداً لفتح البلاد، وفي دول البلقان وغرب افريقيا ووسطها، واندونيسا وماليزيا وغيرها .. كلها بلاد كان للصوفية أكبر الأثر في إدخالهم إلى دين الله أفواجاً .

وهذا يسوقنا إلى الصراع الذي نعيشه اليوم، بين الصوفية والسلفية أو بين المتصوفة والفقهاء أو بين المتصوفة والمتكلمين .. هذه هي المرة الثانية التي نعيش فيها هذه الصراعات في أمتنا، عشناها أول مرة إذ يطبق علينا الصليبون والمغول من كل جهة بعد انهيار

الدولة العباسية وغرقنا في الخلافات السياسة والمشاكل الاقتصادية، ونعيشه اليوم منذ انهيار الدولة العثمانية (بل كان سبباً لزوالها)، وما أشبه اليوم بالأمس، لكن الجديد اليوم هو ما نواجهه من موجة الإلحاد الجديد الذي وضع نصب عينيه تدمير كل ما هو ذا معنى وذا روح وذا قيمة .

وفي ظل مواجهة هذا الإلحاد الجديد يتحتم علينا التركيز على الطريقة التي شكلت بها الأجيال الأولى علاقتها بالله سبحانه فقد كانت الأجيال الأولى مثل الحسن البصري يبنون علاقة الإنسان بالله في أصول الدين على الرحمة و المرحمة، ثم جاء المعتزلة فأسسوا العلاقة بين الإنسان والله في أصول الدين على أساس العدل والعدالة، تلاهم الأشاعرة جاعلين العلاقة في أصول الدين مبنية على القدرة، وأتى الماتريدية فأسسوا علاقة الإنسان مع الله على أساس الحكمة، وجاء المتصوفة ليؤسسوا العلاقة ذاتها بناء على المحبة.

واستمرت تلك المدارس داخل الفكر الإسلامي إلى عصرنا هذا، لكن فكرة " القدرة كأساس للعلاقة " استمرت وتجذرت في عالمنا الإسلامي، وأخذت المدارس السلفية الحديثة أساس القدرة ذاك إلى مراحل أكثر تشديداً ؛، وكل هذا انعكس على الحالة العلمية والأكاديمية بل والنفسية لأجيال كثيرة .. وأثّر بطبيعة الحال على حالة التدين التي نعيشها اليوم .

ولم يكن في الفكر الإسلامي الحديث تجديد حول هذا الموضوع ما خلا ما كتبه الأستاذ المجدد طه عبدالرحمن حول بناء العلاقة بين العبد وربه على أساس الميثاق ؛ ميثاق الأمانة وميثاق الشهادة ..

واليوم نحن بأمس بحاجة إلى أن نجمع بين الرحمة والعدالة،والحكمة والمحبة، مع الإيمان القاطع بقدرته سبحانه، ونجدد ميثاقنا مع ربنا، ميثاق الأمانة والشهادة الذي سيعيدنا إلى المنهجية التي شكلت عقلية التدين لدى الأجيال الإسلامية الأولى .

إن من أشنع ما يحصل اليوم تحت ادعاءات تطهير الدين من البدع، الذهاب إلى تلك البلاد التي قام التدين فيها أصلا على التصوف، فنزيل بدعة أو بدعتين صغيرتين ونجعلهم على أكبر بدعة، بدعة الخروج من دين الله أفواجـًا.

نحن نعيش اليوم أزمة كبيرة متعلقة بأساس التدين وعلاقته بالعالم، ونعيش موجة شنيعة من المادية والعلمانية التي لا تبقى على معنى للوجود سوى الجسد، وهذه الوجودية والعدمية والعبثية التي تلعب بنا، لن يكون لها من دواء إلا الرجوع إلى عالم المعنى، ونحن في تراثنا الإسلامي نسمي المدرسة التي تمنحنا المعاني .. بالتصوف

وأود أن أختم كلمتي بكلمة رأيتها منقوشة في قبة مسجد سليمان في وسط الأناضول الذي بني قبل ٦٠٠ عام :

أوا ما يطلع في سماء القلب نجم الحكمة ثم قمر العلم ثم شمس المعرفة، فبضوء نجم الحكمة تشاهد حقائق الاشياء وبضوء قمر العلم يشاهد عالم المعنى فبضوء شمس المعرفة تشاهد حضرة المولى،

وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة

والسلام عليكم ورحمة الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

الشيخ عبد القادر الجيلاني
المتصوف المصلح

أ. د. قحطان عبد الرحمن الدوري

من الرجال الأفذاذ في التاريخ الإسلامي، الذين كان لهم الدور الكبير في إصلاح المجتمع وعلاج دائه الوبيل، الشيخ المتصوف عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى.

- **اسمه ونسبه:**

هو محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد. ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ[1].

[1] هذا النسب رواه ابنه عبد الرزاق، قال: قال والدي ﷺ. كما ورد في أول كتابه: فتوح الغيب ص٢.
وانظر نسبه في:
المنتظم لابن الجوزي ج١٨ ص١٧٣. ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٧٠٧. والكامل لابن الأثير ج٩ ص٤٨٢. والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ص٣٠٤. ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج٢١ ص٨٠. ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ص١٠١. ومهجة البهجة وهو مختصر بهجة الأسرار للشطنوفي ص١١٤. والمختصر في أخبار البشر للملك المؤيد صاحب حماة ج٣ ص٤٣. وسير أعلام النبلاء للذهبي ج٢٠ ص٤٣٩. والعبر للذهبي ج٤ ص١٧٥. ودول الإسلام للذهبي ج٢ ص٦٥. وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج٢ ص٣٧٣. ومرآة الجنان لليافعي ج٣ ص٢٦٢. والبداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص٢٥٢. والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ج٣ ص٢٩٠. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥ ص٣٧١. والمقصد الأرشد لابن مفلح ج٢ ص١٤٨. والمنهج الأحمد للعليمي ج٣ ص٢١٦. وقلائد الجواهر للتاذفي ص٣. والطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص٢٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد ج٦ ص٣٣٠. وهدية العارفين ج١ ص٥٩٦. والتاج المكلل لمحمد صديق حسن خان ص١٥٥. وجامع كرامات الأولياء للنبهاني ج٢ ص٢٠٠. والأعلام للزركلي ج٤ ص٤٧. ومعجم المؤلفين ج٢ ص٢٠٠. ورجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي ج١ ص٢٩١.

وأُمّه أُمّ الخير أَمَة الجَبَّار فاطمة بنت أبي عبد الله الصَّوْمَعِيّ[١]. ينتهي نسبها إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٢].

وكان لها حظ وافر من الخير والصلاح[٣].

والصومعي من جملة مشايخ جيلان ورؤساء زهادهم، وله أحوال وكرامات[٤].

فالشيخ عبد القادر رضي الله عنه حسني الأب، حسيني الأُمّ.

وهو خال السيد أحمد الرفاعي[٥].

- **ميلاده:**

اختلفوا في سنة مولده على قولين:

القول الأول: ولد سنة ٤٧٠هـ[٦].

قال ولده عبد الرزاق: سألت والدي عن مولده، فقال: لا أعلمه حقيقة، لكني قَدِمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة. والتميمي توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[٧].

وعليه: يكون مولده سنة ٤٧٠هـ[٨].

القول الثاني: ولد سنة ٤٧١هـ[١].

---

[١] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٠. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢١٦.

[٢] فتوح الغيب، تكملة في آخر الكتاب ص١١٢.

[٣] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٠. وقلائد الجواهر ص٣.

[٤] مرآة الجنان ج٣ ص٢٦٥. وقلائد الجواهر ص٣.

[٥] مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ص١٠٢.

[٦] المنتظم ج١٨ ص١٧٣. والكامل في التاريخ ج٩ ص٤٨٢. وقلائد الجواهر ص١٣٤ نقلاً عن القطب اليونيني، وشمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي.

[٧] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٠. ومهجة البهجة ص١١٦.

[٨] مرآة الجنان ج٣ ص٢٦٥.

وذكر بعضهم التاريخين معـًا، ولم يجزم بواحد منهما[2].

وكانت ولادته في جِيْلان[3].

- **عصره:**

عاصر الشيخ عبد القادر ستة خلفاء عباسيين، هم:

المقتدي بأمر الله، والمستظهر بالله، والمسترشد بالله، والراشد بالله، والمقتفي لأمر الله، والمستنجد بالله.

وفي أيام هؤلاء الخلفاء كان الصراع دائراً بينهم وسلاطين السلاجقة، الذين يريدون بسط نفوذهم على الدولة العباسية، مما أدى إلى اضطرابات سياسية عنيفة في البلاد[4].

ومما زاد الصراع عنفاً الدولة الفاطمية في مصر وشمال إفريقية، التي كانت تدين بمذهب الشيعة الإسماعيلية، الذي ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

والإسماعيلية افترقت شعبتين:

أولاهما: وقفت في موت محمد بن إسماعيل، وقالت برجعته بعد موته. وهؤلاء هم القرامطة.

والشعبة الثانية: ساقت الإمامة من بعد إسماعيل في أئمة مستورين: أولهم: ابنه محمد المكتوم إلى أن ظهر عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية. ومن هؤلاء: البُهْرَة، والحشاشون، والخطابية... .

وكل هؤلاء من الغلاة تستروا بالتشيع. وظهرت منهم العقائد المرذولة، منها:

أن علياً هو الله الخالق البارئ المصور، والنبوة مكتسبة بالمجاهدة، والإمامة فرض.

وقولهم بالحلول والتناسخ.

---

[1] المستفاد ص٣٠٦. والعبر ج٤ ص١٧٥.

[2] المنهج الأحمد ج٣ ص٢١٦.

[3] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٣٩. والذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٠.

[4] انظر نماذج من هذا الصراع في: تاريخ الخلفاء للسيوطي.

وقولهم بتحريف القرآن الكريم، وتكفير الصحابة، وأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد[1].

وقولهم بإباحة الأُمَّهَات والبنات والأخوات والزنا والخمر وغير ذلك، وقالوا كل ما حرمه الشرع هو مباح.

وقولهم بقتل الناس، وأخذ أموالهم[2].

قال أبو الحسن القابسي:

إن الذين قتلهم عبيد الله (المهدي) وبنوه من العلماء والعُبَّاد أربعة آلاف رجل، ليردهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت[3].

لذل أَمَرَ أبو سعيد الجَنَّابِيّ وَوَلَدُهُ أبو طاهر عند تمكنهم في دارهم، بترك الصلاة وشرائع الإسلام، وبالاستخفاف ب محمد ﷺ، وبالبيت الحرام، وقتل الحجاج، وتخريب المساجد، وبنيان بيوت الشراب، وأمرهم بنكاح المحارم... إلخ.

وذهب ابنه أبو طاهر إلى مكة لإخرابها سنة ٣١٧هـ، فدخلها يوم التروية، وقتل من الحجاج في رواية الإمام المنصور بالله ستة آلاف، وفي رواية ابن مالك اثني عشر ألفًا، ورمى القتلى في زمزم، وقلع الحجر الأسود، وبقي عندهم اثنتين وعشرين سنة إلَّا شهراً.

وظل عندهم حتى جاءتهم رسل ابن ياقوت التركي، فردوه لخمس بقين من ذي القعدة سنة ٣٣٩هـ.

وسلّم أبو طاهر مملكته إلى زِكْرَوَيْه المجوسي.

قال الراوي: وتالله لقد رأيتُ المصاحف أيام زِكْرَوَيْه يتغوط عليها، ويُمسح بها آثار الغائط تعمداً بذلك[4].

---

[1] كتابي: العقيدة الإسلامية ومذاهبها ص٨٧ وما بعدها، وفيه مصادره.

[2] كتابي: تأويل النص الشرعي ص٤١٣ وما بعدها، وفيه مصادره.

[3] تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٨.

[4] كتابي: تأويل النص الشرعي ص٤١٦ وما بعدها عن بيان مذهب الباطنية وبطلانه للديلمي.

وكان الباطنية يعيثون في الأرض فساداً، فاغتالوا الأعيان والأئمة، منهم: الروياني فخر الإسلام الشافعي الطبري، الذي قتلوه بجامع آمل سنة ٥٠٢هـ.

ومنهم الحشاشون الذين كان لهم دور كبير في إثارة الرعب في المجتمع الإسلامي وقطع الطريق وتخريب البلاد.

لذلك أفتى العلماء بارتداد الإسماعيلية وزندقتهم، كما قال القاضي عياض: (أجمع العلماء بالقيروان أن حال بني عُبَيْد حال المرتدين والزنادقة).

وكتب الإمام الغزالي كتابه (فضائح الباطنية) رد فيه مقالاتهم، وألزم تكفيرهم والتبري منهم.

وكتب محمد بن الحسن الديلمي كتابه (بيان مذهب الباطنية وبطلانه)[1].

وكتب الشيخ عبد القادر الكيلاني كتابه (الغنية لطالبي طريق الحق) الذي عقد به فصلاً (في بيان الفرق الضالة عن طريق الهدى)[2]، وتحدث فيه عن فرق الغلاة، والإسماعيلية والقرامطة منهم.

وبقي هؤلاء على ضلالهم وعبثهم بأمن البلاد، واتصالهم بالصليبيين، بل كانوا أدلَّاء لهم على المسلمين في الشام وغيرها.

إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي، فبدأ بهم، وأسقط الدولة الفاطمية العبيدية سنة ٥٦٧هـ، ثم ثَنَّى بالصليبيين، لأنه يخشى أن لو بدأ بالصليبيين عاونهم الفاطميون.

ويقابل ذلك ما قام به الفرنجة من اعتداءات.

ففي سنة ٤٩٢هـ، هاجم الفرنجة بيت المقدس، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفـًا، منهم العلماء والـعُبَّاد. وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم[3].

---

[1] كتابي: العقيدة الإسلامية ومذاهبها ص٩٩ وفيه مصادره.

[2] الغنية ص١٢٣.

[3] تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٥٦.

وفي سنة ٥٤٣هـ، حاصر الفرنجة دمشق، فوصل إليها نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وأخوه غازي صاحب الموصل، فنُصِرَ المسلمون عليهم، وهُزِمَ الفرنجة[1].

يضاف إلى ما تقدم دخول العناصر الأجنبية بعاداتها وتقاليدها، وظهور الفلسفات الوافدة، فتبعثرت المعايير الخلقية، وتكالب الناس على المادة وحب الدنيا، والمناصب.

هؤلاء الخلفاء الستة الذين عاصرهم الشيخ عبد القادر كان من صفاتهم الحزم والقوة ومعرفة السياسة.

إلَّا أنهم مهما أُوتوا من صفات جليلة فإن الظروف المحيطة بهم مما ذكرنا، والأوضاع المضطربة، لا يستطيعون معها أن يحققوا ما تصبو إليه نفوسهم من الاستقرار ورقي البلاد.

فيأتي هنا دور المصلح الذي يفتح الآفاق، فيربي النفوس، ويصف دواءها، وينهض بالمجتمع بهمة قوية، ونفس عازفة عن الشهوات. يملك لساناً ذرباً، يخاطب الناس على قدر عقولهم، العلماء منهم وعامة الناس، ويهدي الحائرين إلى سبيل الحق، ويهذب النفوس، ويجدد الصلة بالله تعالى، ويذكّر بالآخرة، ويُخْلِص الدينَ لله تعالى، فيعيد صورة مجتمع الصحابة ﷺ.

ظهر الشيخ عبد القادر في هذه الظروف العصيبة متصوفاً، ومجدداً، وداعياً إلى رأب الصدع الذي حدث في النفوس.

فتسلّم الزعامة الدينية، والتفَّ حوله الناس، ورأوا فيه المنقذ المداوي أمراض المجتمع الوبيلة.

- **قدومه بغداد:**

بغداد مركز العالم الإسلامي، ومؤئل الحضارة، وعاصمة الخلافة، فيها المدارس والمكتبات ودور العلم والشيوخ والحلقات العلمية، فلا غرابة أن تكون محط أنظار الطلبة من كل أنحاء البلاد.

قدم الشيخ عبد القادر بغدادَ شاباً، سنة ٤٨٨هـ[2]، وله من العمر ثماني عشرة سنة[1].

---

[1] تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٦٧٣.

[2] المستفاد ص٣٠٥.

وجاء إلى زاوية الشيخ حماد بن مسلم الدباس أول دخوله بغداد[2].

- **شيوخه**:

كان الشيخ عبد القادر حريصًا على تحصيل العلوم الشرعية، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وأنه أبلغ حجة، وأرفع معارج اليقين. فَشَمَّرَ عن ساعد الجد في طلب أُصوله وفروعه.

وقصد الشيوخ أعلام الهدى، ينهل من علومهم.

فقرأ القرآن الكريم حتى أتقنه[3].

وسمع الحديث من:

أبي غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبي سعد محمد بن عبد الكريم بن خُشَيْش[4]، وأبي بكر أحمد بن المظفر بن سُوسَن، وأبي القاسم علي بن أحمد الرزاز[5]، وغيرهم.

وقرأ الفقه على:

أبي الوفاء علي بن عقيل، وأبي الخطاب محفوظ الكَلْوَذَانِيّ[6]، والقاضي أبي الحسين بن الفراء، وأبي سعد المُخَرِّمِيّ[7]، وغيرهم.

وقرأ الأدب على:

أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي[1].

وانظر: سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٣٩. والذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٠. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢١٨.

[1] المستفاد السابق.

[2] قلائد الجواهر ص٣.

[3] قلائد الجواهر ص٤.

[4] المستفاد ص٣٠٥. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٠.

[5] المنتظم ج١٨ ص١٧٣. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٠. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢١٨.

[6] المستفاد ص٣٠٥. ومرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦.

[7] المنهج الأحمد ج٣ ص٢١٨. وقلائد الجواهر ص٤.

وله شيوخ آخرون.

- **تلاميذه**:

حَدَّثَ عنه الكثير، منهم:

السمعاني صاحب الأنساب، وعمر بن علي القرشي، والحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي، والشيخ موفق الدين بن قدامة، وعبد الرزاق، وموسى، ولداه، والشيخ علي بن إدريس. وخلق آخرون[2].

وانتمى إليه جمع من العلماء، والمشايخ، وأخذوا عنه من العلوم، منهم:

الشيخ الإمام القدوة أبو عمرو عثمان بن مرزوق القرشي. قال الشيخ عبد الرزاق: لما حج والدي رحمه الله في السنة التي كنت معه فيها، اجتمع به في عرفات الشيخان: ابن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه خرقة بركة، وسمعا عليه جزءاً من مروياته، وجلسا بين يديه.

وسرد التاذفي أسماء كثيرة لعلماء تلقوا العلم على يد الشيخ عبد القادر، وقال بعد ذلك: (وغيرهم ممن لا يمكن إثبات اسمه بهذا المختصر خوف الإطالة والضجر)[3].

- **مذهبه**:

الشيخ عبد القادر حنبلي المذهب[4]. بل قال السمعاني: هو إمام الحنابلة وشيخهم في عصره[5].

- **عقيدته**:

للشيخ عبد القادر كلام حسن في التوحيد، والصفات، والقدر، ونحوها، وكان متمسكاً فيها بالسنة، مبالغاً في الرد على من خالفها[1].

---

[1] المستفاد ص٣٠٥. والمقصد الأرشد ج٢ ص١٤٩.

[2] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٠.

وانظر: مرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٥.

[3] قلائد الجواهر ص٥.

[4] الكامل لابن الأثير ج٩ ص٤٨٢. ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ص١٠١.

[5] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤١.

وكان يقول: مروا بأخبار الصفات على ما جاءت[2].

- **طريقه في التصوّف:**

صحب الشيخ حماد الدباس[3]، وأخذ عنه علم الطريقة[4]، بعد أن لبس الخرقة من أبي سعد المبارك الـمُخَرِّمِيّ[5].

ثم أظهره الله للناس، وحَدَّثَ، وصَنَّفَ، ووقع له القبول التام[6].

وقال القاضي الـمُخَرِّمِيّ:

لبس عبد القادر الجيلي مني خرقةً، ولبستُ منه خرقةً، يتبرك كل واحد منا بالآخر[7].

وكان أبو سعد الـمُخَرِّمِيّ قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزَج، ففوضت إلى الشيخ عبد القادر، فتكلم بلسان الوعظ، وظهر له صيتٌ بالزهد.

فضاقت مدرسته بالناس، فكان يجلس عند سور بغداد بباب الحَلْبَة مستنداً إلى الرِّبَاط.

فعمرت المدرسة ووسِّعت[8].

ولازم الانقطاع والخلوة والمجاهدة[1]، فانقطع عن الناس في مدرسته متشاغلاً بالتدريس والتذكير[2].

---

[1] الذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٦. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٤٤.

[2] الفتح الرباني، ذكر وفاته ﷺ ص٣٩٣. وفتوح الغيب، تكملة في ذكر وصاياه لأولاده ص١١٠.

[3] المستفاد ص٣٠٥. ومرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦. والعبر ج٤ ص١٧٥.

[4] المستفاد ص٣٠٥. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢١٩.

[5] شذرات الذهب ج٦ ص٣٣١.

وانظر: قلائد الجواهر ص٤.

[6] المستفاد ص٣٠٥. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٤.

[7] قلائد الجواهر ص٥.

[8] المنتظم ج١٨ ص١٧٣. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤١. ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ص١٠٢. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٥.

وكان قد تحمل الأحوال الشاقة، والدخول في الأُمور الصعبة من مخالفة النفس، وملازمة السهر والجوع والمقام في الخراب والصحاري[٣].

وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق[٤].

ووضع الشيخ عبد القادر أُصول تربية المريدين، وآدابهم مع الشيخ، لأن المشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل والأدلَّاء عليه، مع لزوم الاعتقاد بأنهم ليسوا بمعصومين.

وهذه التربية يؤكد الشيخ عليها في:

ذكر آداب المريد مع الشيخ، فالواجب عليه:

ترك مخالفة شيخه في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن.

وإن رأى فيه عيباً ستره عليه، ويعود بالتهمة على نفسه، ويتأول للشيخ في الشرع.

وإذا غضب الشيخ، وعبس في وجهه، لم ينقطع عنه.

ومن آداب المريد:

أن لا يتكلم بين يدي شيخه إلَّا في حالة الضرورة. وإن رأى في جوابه نقصاً فلا يرد عليه، ولا يقول: أخطأ الشيخ في المسألة.

وعليه الانقياد والالتزام ما يأمر به شيخه من التأديب.

ثم انتقل الشيخ عبد القادر إلى ما يجب على الشيخ من تأديب المريد، فقال:

عليه أن يقبله لله عز وجل لا لنفسه، فيعاشره بحكم النصيحة، ويلاحظه بعين الشفقة، فيربيه تربية الوالدة لولدها...، وأسهب في ذلك.

ثم تحدث الشيخ عبد القادر عن الصحبة مع الإخوان بالإيثار والفتوة والصفح عنهم.

وعن الصحبة مع الأجانب، فينظر إليهم بعين الشفقة والرحمة.

---

[١] المستفاد ص٣٠٥.

[٢] مناقب الإمام أحمد ص٧٠٧.

[٣] قلائد الجواهر ص٧.

[٤] مرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦. ومهجة البهجة ص١٣٣.

وعن الصحبة مع الأغنياء، بترك الطمع مما في أيديهم.

وعن الصحبة مع الفقراء، بإيثارهم وتقديمهم على النفس بالمأكول والمشروب، واحذر أن تمنّ عليهم بذلك.

وذكر الشيخ آداب العِشْرَة مع إخوانه، فيكون منبسط الوجه معهم، ولا يخالفهم بشرط أن لا يكون فيه خرق للشرع.

ولا يكون ممارياً، ويكون مساعداً صبوراً ساتراً للعيوب.

وتحدث الشيخ عن آداب الفقراء عند الأكل، فلا يأكلوا بالشره، وأن يذكروا اسم الله بقلوبهم عند الأكل.

وأن لا يمدوا أيديهم قبل من هو فوقهم.

وذكر آداب الفقراء فيما بينهم، ومنها:

أن يجتهد المريد في تقديم الطعام إلى الفقراء، وأن يكون أنظف ما يمكنه.

ولا ينبغي له أن يرفع صوته بينهم بتسبيحه وقراءته، بل يخفيه عنهم.

ولا يكثر من النوافل بين أيديهم... .

وذكر الشيخ آدابهم مع الأهل والولد، ومنها:

حسن الخلق، والإنفاق عليهم بالمعروف بما أمكنه، وعدم إطعامهم الحرام، ويجب أن يؤدب أهله بملازمة ظاهر العلم والشريعة.

وذكر الشيخ آدابهم في السفر، منها:

أن يعاشر أصحابه في سفره بحسن الخلق، وجميل المداراة، وترك اللجاج في جميع الأشياء.

وتكلم عن آداب السماع ولبس الخرقة.

ثم قال الشيخ عبد القادر:

وهذا آخر ما أَلِفْنَا من آداب القوم على وجه الاختصار والإقلال[1].

---

[1] الغنية ص٤٤٥-٤٦٨.

والذي ذكرته هنا إنما هو إشارات مما أفاض به الشيخ في كتابه الغنية لطالبي طريق الحق.

وقد سبقه في كثير منها الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، وغيره.

- **مجالسه ووعظه**:

كان أول جلوسه للوعظ في شوال سنة ٥٢١هـ[١]، وكان المجلس بالحَلْبَة البَرَّانِيَّة[٢].

واعتقد الناس صلاحه وديانته، وانتصر أهل السنة بظهوره، واشتهرت أحواله وكراماته ومكاشفاته[٣].

وازدحم الخلق عليه، وكان الناس يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال، وبعضهم يأتي بالليل بالشمع والمشاعل.

ولما ضاق المجلس أُخرج كرسي الشيخ إلى خارج البلد، وجُعِلَ في المُصَلَّى[٤].

وبعد الفراغ من بناء مدرسة أبي سعد المُخَرِّمِيّ سنة ٥٢٨هـ تصدّر فيها الشيخ عبد القادر للتدريس والفتوى والوعظ[٥].

وقُصِدَت بالزيارات والنذور، واجتمع عنده بها من العلماء والفقهاء والصالحين جماعة من الآفاق، فحملوا عنه[٦].

وأقام فيها يدرس ويعظ إلى أن توفي[٧].

---

[١] مرآة الجنان ج٣ ص٢٦٣. ومهجة البهجة ص٣٢٢.

[٢] المنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٤. وقلائد الجواهر ص١٣٧ عن ابن النجار في تاريخه.
الحَلْبَة: محلة كبيرة ببغداد في شرقيها، قرب باب الأَزَجِ. / مراصد الاطلاع ج١ ص٤١٧.
باب الأَزَج: محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحالّ كبار، في شرقي بغداد. / مراصد الاطلاع ج١ ص٦٥.

[٣] الذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩١. والمقصد الأرشد ج٢ ص١٥٠.

[٤] المنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٤. وقلائد الجواهر ص١٣.

[٥] مرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦. ومهجة البهجة ص١٣٣.

[٦] مرآة الزمان ج٢١ ص١٠٦. ومهجة البهجة ص١٣٣و٣٣٧. ومرآة الجنان ج٣ ص٢٦٧.

[٧] المنتظم ج١٨ ص١٧٣. والذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩١.

وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة عالم وغيره[1].

وما كان يخرج من مدرسته إلَّا يوم الجمعة إلى الجامع أو إلى الرباط. وما كان أحد يراه إلَّا في أوقات الصلاة[2].

وقال ابنه الشيخ عبد الوهاب: كان والدي يتكلم في الأُسبوع ثلاث مرات، بالمدرسة بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد[3].

وكان سكوت الشيخ عبد القادر أكثر من كلامه، وكان يتكلم على خواطر أهل المجلس، ويواجههم بالكشف. فظهر له صيت عظيم[4].

- **سعة علمه**:

برع الشيخ عبد القادر في المذهب والخلاف والأُصول[5].

وكان يتكلم في ثلاثة عشر علماً: التفسير، والحديث، وعلوم الحديث، والمذهب، والخلاف، والأُصول، والنحو.

وكان يقرئ القرآن بالقراءات بعد الظهر[6].

- **كتبه**:

أَلَّفَ الكثير من الكتب والرسائل، على رأسها:

الغنية لطالبي طريق الحق، وفتوح الغيب، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والفيوضات الربانية. وهذه كلها مطبوعة.

وله كتب ورسائل لا زالت مخطوطة.

---

[1] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٦. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٧.

[2] مرآة الزمان ج٢١ ص٧٧.

[3] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٥. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٧. وقلائد الجواهر ص١٨.

[4] مرآة الزمان ج٢١ ص٧٧و٩٣. ومهجة البهجة ص١٢٦ نقلاً عن موفق الدين بن قدامة و٣٣٠. والعبر ج٤ ص١٧٥.

[5] المقصد الأرشد ج٢ ص١٤٩.

[6] مرآة الزمان ج٢١ ص٩١. والمنهج الأحد ج٣ ص٢٢٧. وقلائد الجواهر ص٣٨.

وهذا يدل على علمه الواسع وفهمه الثاقب.

- **فتاواه**:

قال الشيخ عمر البزار: كانت الفتاوى تأتيه من بلاد العراق وغيره، وما رأيناه تبيت عنده فتوى ليطالع عليها، أو يفكر بها، بل يكتب عليها عقيب قراءتها.

وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أحمد رحمهما الله تعالى[1].

- **صفته**:

كان جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، دائم البشر، وافر العلم والعقل، مُعَظِّماً لأهل العلم، مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت، سخي اليد، كريم النفس على أجمل طريقة[2].

وكان ذا هيبة عظيمة، إذا نظر إلى أحد يكاد يرعد من هيبته[3].

وكان شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله عز وجل[4].

وكان في وسط الشتاء وقوة برده يلبس قميصاً واحداً، وعلى رأسه طاقية، والعرق يخرج من جسده، وحوله من يُرَوِّحه بمروحة، كما يكون في شدة الحر[5].

- **إنفاقه على الفقراء**:

قال ابن النجار:

قال الشيخ عبد القادر: فتشت الأعمال كلها، فما وجدتُ فيها أفضل من إطعام الطعام، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي فأُطعمها الجياع[6].

---

[1] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٢. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٣٠. وقلائد الجواهر ص٣٨. والطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص٢٢٨.

[2] مهجة البهجة ص٣٣٧.

[3] مهجة البهجة ص٣٣٣.

[4] مهجة البهجة ص٣٣٧.

[5] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٩. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٩ عن ابن النجار. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٣. وجامع كرامات الأولياء ج٢ ص٢٠٢.

[6] شذرات الذهب ج٦ ص٣٣٢. وقلائد الجواهر ص٨.

وقال الشيخ عبد القادر أيضـاً:

كفي مثقوبة، لا تضبط شيئـاً، لو جاءني ألف دينار لم أُبَيِّتْـهَـا، وكان إذا جاءه أحد بذهب، يقول: ضَـعْـهُ تحت السجّادة[1]، ولا يمسّه، فإذا جاء خادمه قال: خذ ما تحت الوسادة، وأعطه الخباز والبقال[2].

وكان إذا جاءته خلعة من الخليفة، يقول: أعطوها الطحان.

وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه، يطحنها ويخبز له كل يوم أربعة أرغفة أو خمسة، فكان الشيخ يفرق منها على من حضره كسرة كسرة، والباقي يدخره لنفسه.

وكان إذا أُهديت له هدية يفرق منها على من حضره ذلك الوقت. وكان يقبل الهدية ويكافئ عليها.

ويقبل النذور ويأكل منها[3].

وذكر بعض الذين ترجموا له قصصـاً في إنفاقه وتفقده المحتاجين.

قوله الحق وموقفه من السلطان والمنافقين:

كان الشيخ عبد القادر يصدع بالحق على المنبر، وينكر على من يُوَلِّي الظَّلَمَة على الناس.

فلما وَلَّى المقتفي القاضيَ ابن الـمُرَخِّم، وكان ظالمـاً، قال الشيخ على المنبر: وَلَّيْتَ على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك غداً عند رب العالمين؟[4].

فارتعد الخليفة وبكى، وعزل القاضي المذكور لوقته[5].

وحكى محمد بن الخضر، عن أبيه قال:

---

[1] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٧. وقلائد الجواهر ص٨.

[2] مهجة البهجة ص١٢١. وقلائد الجوهر ص٣٦.

[3] مهجة البهجة ص١٢١-١٢٢.

وانظر: قلائد الجواهر ص٨و٣٦.

[4] مرآة الزمان ج٢١ ص٧٨.

[5] قلائد الجواهر ص٦.

خدمتُ سيدي الشيخ عبد القادر ثلاث عشرة سنة فما رأيته قام لأحد من العظماء، ولا أَلَـمَّ بباب ذي سلطان، ولا جلس على بساطه، ولا أكل من طعامه إلَّا مرة واحدة[1].

وكان الشيخ ينكر على المنافقين، ويخاطبهم بكل صراحة:

يا خونة في العلم والعمل، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر، كم تنافقون الملوك والسلاطين، حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها.

أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظلمة خونة في مال الله عز وجل في عباده[2].

- **إجلال الناس له**:

كان الشيخ عبد القادر إذا قام فوق الكرسي يقوم الناس لجلالته، وإذا قال لهم: اسكتوا، سكتوا، حتى لم يُسْـمَـعْ منهم سوى أنفاسهم، هيبة له[3].

- **ثناء المشايخ عليه**:

كلمات الثناء من المشايخ والأكابر على الشيخ عبد القادر تكاد لا تحصر.

فقد وصفه السمعاني، وهو ممن أخذ عن الشيخ عبد القادر، بقوله: كان عبد القادر من أهل جيلان، إمامَ الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه، صالح، دَيِّن، خَيِّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، كتبتُ عنه[4].

وقال الشيخ عدي بن مسافر ﷺ (المتوفى سنة ٥٥٧هـ):

كانت الأوقات التي جالسنا فيها الشيخ عبد القادر ﷺ، كأنها في المنام، كانت أخلاقه رضية، وأوصافه زكية، ونفسه أبية، وكفه سخية[5].

وقال الشيخ أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الواعظ (المتوفى سنة ٥٧٥هـ):

---

[1] مرآة الزمان ج٢١ ص٨١. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٣.

[2] الفتح الرباني والفيض الرحماني، المجلس الحادي والخمسون ص٢٢٤.

[3] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٣. ومهجة البهجة ص٣٣٠.

[4] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤١ عن السمعاني.

[5] مهجة البهجة ص١٢٣.

ما رأت عيناي أحسنَ خُـلُقـًا، ولا أوسع صدراً، ولا أكرم نفسـًا، ولا أعطف قلبـًا، ولا أحفظ عهداً ووداً من الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه[1].

وسئل عنه الشيخ أبو مدين شعيب بن حسين الأندلسي، المدفون في تلمسان بالجزائر، المتوفى سنة ٥٩٠هـ، وهو من كبار تلاميذ الشيخ عبد القادر، فقال:

كان ظاهر الوضاءة، دائم البشرة، كثير البهاء، شديد الحياء، ما رأيتُ أنزه لسانـًا، ولا أظهر لفظـًا منه.

وكان يقول:

إن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه سريع الدمعة، شديد الخشية، كثير الهيبة، مجاب الدعوة، كريم الأخلاق، طيب الأعراق، أبعد الناس عن الفحش، أقرب الناس للحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لغير ربه، ولا يرد سائله. كان التوفيق رائده، والأُنس نديمه، والبسط نسيمه، والصدق رايته، والفتح بضاعته، والذِّكْر وزيره، والفكر سميره، والمكاشفة غذاءه، والمشاهدة شفاءه، وآداب الشريعة ظَاهِرَهُ، وأوصاف الحقيقة سرائره[2].

والكلمات في وصفه كثيرة جداً.

- **لقبه**:

كان الشيخ عبد القادر يلقب بالباز الأشهب[3].

- **تواضعه**:

قال الشيخ الـمُعَمَّر جرادة:

ولقد كان مع جلالة قَدْره، وعُلُوّ منزلته، وسَعَة علمه، يقف مع الصغير، ويوقر الكبير، ويبدأ بالسلام، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء[1].

---

[1] مهجة البهجة ص١١٧.

وهذا الوصف نقل عن الشيخ الـمُعَمَّر جرادة في: مرآة الزمان ج٢١ ص٨١. وقلائد الجواهر ص١٩.

[2] مهجة البهجة ص١٢٤-١٢٥.

[3] مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ص١٠٢.

- **التوبة على يديه**:

تاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم معظم اليهود والنصارى[٢].

قال الجبائي:

قال لي سيدنا الشيخ عبد القادر: أراد الله عز وجل مني منفعة الخَلْق، فإنه قد أسلم على يَدَيَّ أكثر من خمس مئة من اليهود والنصارى، وتاب على يَدَيَّ من العَيَّارِيْن والمسالحة وقطاع الطرق أكثر من مئة ألف، وهذا خير كثير[٣].

- **عبادته**:

قال الشيخ أبو الفتح الهَرَوِيّ:

خدمتُ سيدي الشيخ عبد القادر أربعين سنة، فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء.

وكان يصلي العشاء ويدخل خَلْوَتَهُ، ولا يدخلها معه أحدٌ.

قال: وبتُّ عنده ليالي، فكان يصلي أول الليل يسيراً، ثم يذكر الله إلى أن يمضي الثلث الأول، ثم يصلي قائماً على قدميه يتلو إلى أن يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل في سجوده جداً.

ثم يجلس متوجهاً إلى قريب طلوع الفجر، ثم يدعو ويبتهل ويتذلل إلى صلاة الصبح[٤].

- **توكله على الله تعالى**:

قال أبو عبد الله النجار:

---

[١] مرآة الزمان ج٢١ ص٨١.

وانظر: مهجة البهجة ص١١٧. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٣٠. وقلائد الجواهر ص١٩.

وانظر كلام عدي بن مسافر في ذلك في: مهجة البهجة ص١٢٣.

[٢] مرآة الزمان ج٢١ ص٧٧. ومختصر أخبار الخلفاء ص١٠٢.

[٣] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٤. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٧.

[٤] مرآة الزمان ج٢١ ص٩٦. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٢٢-٢٢٣. وطبقات الشعراني ج١ ص٢٣٠.

قال لي سيدنا الشيخ عبد القادر: تَرِدُ عَلَيَّ الأثقالُ الكبيرة، لو وُضِعَت على الجبال تفسَّخت، فإذا كثرت عَلَيَّ وضعتُ جنبي على الأرض، وقلت: (فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً) – الشرح: ٥-٦.

ثم أرفع رأسي، وقد انفرجت عني تلك الأثقال[1].

- **كراماته:**

غالب من ترجم للشيخ عبد القادر ذكر من كراماته.

قال موفق الدين بن قدامة صاحب المغني:

لم اسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه – أي: عن الشيخ عبد القادر –، ولا رأيتُ أحداً يُعَظِّمُهُ الناسُ للدين أكثر منه[2].

وقال الشيخ العز بن عبد السلام:

ما نُقِلَت إلينا كراماتُ أحدٍ بالتواتر، إلَّا الشيخ عبد القادر[3].

ونحو ذلك قول النووي[4]، واليافعي[5]، وغيرهم[6].

- **أولاده:**

قال الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر:

ولد لوالدي تسعة وأربعون ولداً: سبعة وعشرون ذكوراً، والباقي إناثـًا. رحمه الله تعالى[7].

---

[1] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٤. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٧ عن الجبائي.

[2] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٢. والذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٢. وقلائد الجواهر ص٦.

[3] سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٣. والذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٢. والمقصد الأرشد ج٢ ص١٥٠.

[4] مهجة البهجة ص٣٣٦ عن بستان العارفين للنووي.

[5] مرآة الجنان ج٣ ص٢٦٨.

[6] انظر مثلاً: قلائد الجواهر.

[7] المستفاد ص٣٠٧. وسير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٤٧.

وكان قد تزوج أربع زوجات[1].

- **وفاته**:

توفي الشيخ عبد القادر ليلة السبت، ثامن ربيع الآخر سنة ٥٦١هـ إحدى وستين وخمسمائة[2].

ودفن بمدرسته[3] من وقته[4] في الليل من كثرة الزحام[5].

وصلى عليه ولده عبد الوهاب[6]، وشَيَّعَهُ خلق لا يحصون[7].

وضريح الشيخ عبد القادر في جامعه في جانب الرصافة ببغداد، وهو من أجمل جوامعها وأوسعها اليوم.

- **عمره**:

عمر الشيخ عبد القادر تجاوز تسعين سنة.

وعند احتضاره سأله ولده الشيخ عبد الجبار:

ماذا يؤلمك من جسمك؟

فقال ﷺ: جميع أعضائي تؤلمني إلَّا قلبي، فما به من ألم، وهو مع الله عز وجل.

ثم أتاه الموت، فكان ﷺ يقول:

استعنتُ بلا إله إلَّا الله سبحانه وتعالى، والحي الذي لا يخشى الفوت، سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلَّا الله محمد رسول الله.

---

(1) قلائد الجواهر ص٤١.

(2) المنتظم ج١٨ ص١٧٣. والمقصد الأرشد ج٢ ص١٥١.

(3) المنتظم ج١٨ ص١٧٣. والمستفاد ص٣٠٦. والبداية والنهاية ج١٢ ص٢٥٢.

(4) الذيل على طبقات الحنابلة ج١ ص٢٩٩. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٤٤.

(5) مرآة الزمان ج٢١ ص٧٩.

(6) مهجة البهجة ص١٢٧. والمنهج الأحمد ج٣ ص٢٤٥.

(7) سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٤٥٠.

ثم خرجت روحه الكريمة[1].

ورثاه كثيرون.

هذه الصفات التي ذكرناها في الشيخ، وحرصه على نشر العلم والفضائل، ومسيرته الطويلة في تربية المريدين، وإنفاقه على الفقراء، وتفقده المحتاجين، وما يتصل بذلك من سجايا، هذه كلها تؤهله للصدارة في المجتمع مرشداً، ومربياً، ومعلماً، وداعياً إلى الله سبحانه.

فكان المجدد لهذا الدين، ومصلحاً، متمسكاً بالكتاب والسنة، لا يلتفت إلى أعراض الدنيا، متأسياً بما كان عليه الصحابة والتابعون.

وهذه غايته التي كان ينشدها في حياته.

ورأى أن هذه الغاية لا تتحقق إلَّا بسلوكه طريق التصوف الصافي، والزهد.

فكان تأثيره كبيراً في إصلاح المجتمع.

- **تصوّف الشيخ عبد القادر:**

اسم التصوف والصوفية اشتهر قبل المائتين للهجرة، لعدد من الأكابر، مثل:

إبراهيم بن أدهم البلخي، المتوفى سنة ١٦١هـ.

وداود بن نصير الطائي، المتوفى سنة ١٦٥هـ.

والفضيل بن عياض، المتوفى سنة ١٨٧هـ.

وشقيق بن إبراهيم البلخي، المتوفى سنة ١٩٤هـ.

ومعروف الكرخي، المتوفى سنة ٢٠٠هـ.

وبشر الحافي، المتوفى سنة ٢٢٧هـ.

والحارث بن أسد المحاسبي، المتوفى سنة ٢٤٣هـ.

وغيرهم[2].

---

[1] فتوح الغيب، تكملة في ذكر وصاياه لأولاده ص١١٠.

[2] الرسالة القشيرية ص١٦ وما بعدها.

والعلماء اختلفوا في اشتقاق لفظ التصوف في أصل اللغة على أقوال:

أنه منسوب إلى أهل الصفة، أو من الصف الأول، أو من الصفاء، أو من لبس الصوف. واختلفوا في إثباتها.

وأُثرت عن المتقدمين معانٍ اصطلاحية للتصوف:

فأبو محمد الجريري يقول: التصوف هو الدخول في كل خُلُق سَنِيّ، والخروج من كل خُلُق دَنِيّ.

وللعلماء المتصوفة تعاريف كثيرة ذكر جملةً منها القشيريُّ في رسالته، وابن الجوزي في تلبيس إبليس، وغيرهما.

وكلها تدور حول ما ذكره أوائلهم من التعويل على الكتاب والسنة.

قال الجنيد البغدادي، المتوفى سنة ٢٩٧هـ: مذهبنا هذا مقيد بالأُصول: الكتاب والسنة.

وقال أيضـاً:

علمنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به[١].

ونقل الشيخ عبد القادر أن التصوف هو الصدق مع الحق، وحسن الخُلُق مع الخَلْق[٢].

وقال: التصوف مشتق من الصفاء، فليس كل من لبس الصوف صادقاً في تصوفه، يصفو قلبه عما سوى مولاه عز وجل. هذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الاصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا[٣].

وقال الشيخ عبد القادر أيضـاً:

---

(١) تلبيس إبليس ص١٩٢.

(٢) الغنية ص٤٤٢.

(٣) الفتح الرباني، المجلس الخامس والعشرون ص١١٧.

أُوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع، وسلامة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وحمل الأذى والفقر، وحفظ حرمات المشايخ، والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة، والإرفاق، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار[1].

وقال الشيخ عبد القادر في ضابط التصوف كما يراه:

كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة[2].

وقال أيضـًا:

ترك العبادات المفروضات زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تُسْقِط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال[3].

وهذا التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية تكون نتيجته الابتعاد الكامل عن كل ما طرأ على التصوف من أفكار بعيدة عن الدين.

وكانت تلك الأفكار الفلسفية، كفكرة الفيض، ونظرية الاتحاد، ووحدة الوجود، والشطحات التي ظهرت عندهم، والتي أحدثت فجوة كبيرة بين الصوفية والفقهاء والـمُحَدِّثِيْن، لم تجد لها قبولاً عند العلماء، بل دعا بعضَ علماء التصوف إلى أن يضع قواعد للتصوف.

فكتب الكلاباذي المتوفى سنة ٣٨٠هـ كتابه: التعرف لمذهب أهل التصوف، والقشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ: الرسالة القشيرية، والغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ كتابه: إحياء علوم الدين، الشيخ عبد القادر الكيلاني كتابه: الغنية، وغير ذلك.

---

[1] فتوح الغيب ص١٠٢ المقالة الخامسة والسبعون.

[2] الفتح الرباني، المجلس الرابع والأربعون ص١٨٥، وانظر: المجلس الثالث والعشرين ص١١٠، والمجلس الحادي والستين ص٣٦٧.

[3] الفتح الرباني، المجلس الحادي عشر ص٥٢.

وكتبهم كلها تبين أن الصوفي الحَقَّ مسلم صافٍ لا يخرج عن الكتاب والسنة.

وممن كتب في هذا الباب الإمام النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ، الذي ذكر خلاصة ما قاله السابقون، ونَسَّقَهُ في كتابه (المقاصد)، وانتهى فيه إلى أن أُصول طريق التصوف خمسة، وهي تمثل الإسلام الصحيح في صفائه، واستقامته.

وسترى هذه الأُصول الخمسة في كلام الشيخ عبد القادر واضحة بينة، كما سأُوضحه فيما يأتي:

الأصل الأول: تقوى الله في السر والعلانية.

وتحقيق هذا الأصل يكون بالورع، وهو التجنب عن المحرمات والمكروهات والمشبوهات، وبالاستقامة على الطاعات[1].

قال الشيخ عبد القادر:

عن النبي ﷺ أنه قال: (من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله). ثم قال الشيخ من كلام طويل:

... من أحب الغنى في الدين والدنيا فليتق الله عز وجل دون غيره، ويقف على بابه[2].

وبَيَّنَ كلام العلماء في معنى التقوى وحقيقة المتقي، حين شرح قوله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) – الحجرات: ١٣، واستعرض أقوال عدد من الصحابة والتابعين وأتباعهم وأعلام المتصوفة، ثم قال: طريق التقوى، أولاً: التخلص من مظالم العباد وحقوقهم، ثم من المعاصي الكبائر منها والصغائر، ثم الاشتغال بترك ذنوب القلب التي هي أُمَّهَات الذنوب وأُصولها[3].

---

[1] المقاصد للنووي ص٥٦.

[2] المنهج الأحمد ج٣ ص٢٣٩.

[3] الغنية ص١٩١-١٩٦.

الأصل الثاني: متابعة خاتم النبيين محمد ﷺ في العقائد والأقوال والافعال والأخلاق.

وتحقيق هذا الأصل يكون بكمال الاتباع، والتحفظ من الابتداع، وحسن الخلق[1].

وترجم الشيخ عبد القادر ذلك في كتبه، وعلى رأسها كتابه الغنية، فَبَيَّنَ فيه أن ما يجب على من يريد الدخول في ديننا أولاً: أن يتلفظ بالشهادتين. ثم أوضح أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والآداب العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم بَيَّنَ معرفة الصانع والإيمان بنبوة محمد ﷺ، والبدع، والفرق الإسلامية، والاتعاظ بمواعظ القرآن، والتوبة، والتقوى. وختم الكتاب ببيان آداب المريدين والتصوف وما يتصل به.

الأصل الثالث: الأعراض عن الخَلْق في الإقبال والإدبار.

وتحقيق هذا الاصل يكون بالصبر على تحمل المشقة على أذى الناس، وتفويض الحال إلى الباري عز وجل[2].

والشيخ عبد القادر بَيَّنَ هذا الاصل حين تكلم عن النجاة، بإيراده قول الحسن البصري: ما نجا من نجا إلَّا بالإعراض عن الدنيا وأهلها، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وأقوال أُخرى[3].

الأصل الرابع: الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

وتحقيق هذا الأصل يكون بالقناعة، والرضا بالدون، والتسليم لله[4].

قال الشيخ عبد القادر:

أرضَ بالدون، والزمه جداً حتى يبلغ الكتاب أجله، فتنقل إلى الأعلى والأنفس، وبه تهنأ. . . .

---

[1] المقاصد للنووي ص٥٦.

[2] المقاصد للنووي ص٥٦.

[3] الغنية ص١٩٦.

[4] المقاصد للنووي ص٥٦.

واعلم أن القَسْمَ لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقسم لا تناله بحرصك في الطلب والجد والاجتهاد، فاصبر والزم الحال، وارضَ به[1].

الأصل الخامس: الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء.

وتحقيق هذا الأصل: يكون بالشكر له في السراء، أي: الرجاء والصحة والغنى. وباللجوء إليه في الضراء، أي: الشدة والفقر والعناء[2].

قال الشيخ عبد القادر:

لا تَشْكُ لأحد ما نزل بك من ضر كائناً ما كان، صديقاً أو قريباً، ولا تتهمنَّ ربك فيما فعل فيك، ونزل بك من إرادته، بل أظهر الخير والشكر، ... لا فاعل سوى ربك، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأنعام: ١٧][3].

وهذا يوضح أن الشيخ عبد القادر لم يخرج عن الكتاب والسنة. وهذه الأُصول الخمسة التي هي أُصول التصوف الرشيد، والتي لخصها الإمام النووي من كلام الصوفية الأصفياء، تجلت واضحة في كتابات الشيخ عبد القادر، فلا تطرف في فكره، ولا غلو، ولا إفراط، ولا تفريط. ولا تجد فيه أثراً للنظريات الفلسفية كالحلول، ووحدة الوجود، وغيرها.

أما السماع الذي اشتهر عند المتصوفة، فقد سُئِلَ شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعي العسقلاني، هل ورد عن الشيخ عبد القادر أنه حضر السماع الذي اتخذه الفقراء بالدفوف والمواصيل وغير ذلك من الآلات أو أمر بحضوره، أو قال فيه شيئاً بإباحة أو تحريم؟

فأجاب رحمة الله عليه:

أما الشيخ عبد القادر فالذي وصل إلينا من أخباره الصحيحة: أنه كان فقيهاً زاهداً عابداً، يتكلم على الناس، ويرغبهم في الزهد والتوبة، ويحذرهم من العقوبة على المعصية،

---

[1] فتوح الغيب، المقالة الثالثة والعشرون في الرضا بما قسم الله ص٣٣.

[2] المقاصد للنووي ص٥٦.

[3] طبقات الشعراني ج١ ص٢٣٤.

فكان يتوب على يده من الخلق ما لا يحصى كثرة، وله كرامات مستفيضة لم ينقل لنا عن أحد من أهل عصره ولا من بعده أكثر ما نقل عنه.

ولا أعرف عنه في مسألة السماع بهذه الآلات شيئاً[1].

طريق الشيخ عبد القادر في الإصلاح:

ويتضح طريقه بما يأتي:

١ - إصلاح الفرد:

حين يذكر الشيخ عبد القادر ما يجب على المريد للوصول إلى الله تعالى، إنما يؤكد أن الفرد يكون لبنة صالحة لبناء المجتمع السليم إذا أخذ بأُمور سبعة، هي أساس طريقته، وهي:

المجاهدة، والتوكل، وحسن الخلق، والشكر، والصبر، والرضا، والصدق.

وشَرَحَ هذه الأُمور السبعة، فذكر:

١. المجاهدة. قال: الأصل فيها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والأصل في المجاهدة مخالفة الهوى، فيفطم نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات، ويحملها على خلاف ما تهوى في عموم الأوقات.

ولا تتم المجاهدة إلَّا بالمراقبة، وهي التي سميت بحديث الإيمان (الإحسان).

ولأهل المجاهدة والمحاسبة وأُولي العزم عشر خصال، فإذا أقاموها وصلوا إلى المنازل الشريفة. وعددها، ومنها:

أن لا يحلف العبد بالله عز وجل صادقاً ولا كاذباً... .

وأن يجتنب الكذب هازلاً وجادّاً...[2].

٢. التوكل. والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق: ٣].

---

[1] فلائد الجواهر ص١٣٥.

[2] الغنية ص٤٦٨-٤٧٧.

وهذه النقاط العشر أوردها أيضاً في: فتوح الغيب، المقالة الثامنة والسبعون ص١٠٥-١٠٩.

وحقيقة التوكل: تفويض الأُمور إلى الله عز وجل، فيقطع العبد أن لا تبديل للقسمة، فما قُسِمَ له لا يفوته، وما لم يقدر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك، ويطمئن إلى وعد مولاه.

وأورد الشيخ أقوالاً كثيرة في التوكل للمشايخ كالجنيد وغيره[1].

٣. حسن الخلق. والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم: ٤].

وحسن الخلق أفضل مناقب العبد، وبه تظهر جواهر الرجال.

وحسن الخلق مع الله عز وجل أن تؤدي أوامره، وتترك نواهيه، وتطيعه في الأحوال كلها، وتسلم جميع المقدور إليه[2].

٤. الشكر. والأصل فيه قوله عز وجل: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم: ٧].

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وذكر الشيخ أقوالاً في الشكر عديدة[3].

٥. الصبر. والأصل فيه قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

وبعد أن تكلم الشيخ على الصبر وأضربه، جاء بقول الخواص رحمه الله تعالى: الصبر الثبات مع الله تعالى على أحكام الكتاب والسنة[4].

٦. الرضا. والأصل فيه قوله عز وجل: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿١١٩﴾ ﴾[المائدة: ١١٩].

والراضي هو الذي لا يعترض على تقدير الله عز وجل[5].

---

[1] الغنية ص٤٧٧-٤٨٠.

وانظر: الفتح الرباني، المجلس الثاني والأربعين ص١٧٤.

[2] الغنية ص٤٨٠-٤٨١.

[3] الغنية ص٤٨٢-٤٨٤.

[4] الغنية ص٤٨٤-٤٨٥.

وانظر: الفتح الرباني، المجلس الثامن والثلاثين ص١٦٢.

[5] الغنية ص٤٨٥-٤٨٩.

٧. الصدق. والاصل فيه قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة: ١١٩].

والصدق: هو استواء السر والعلانية.

والصادق: هو ا لذي صَدَقَ في أقواله.

والصِّدِّيْق: هو من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله[١].

فالشيخ يدعو إلى إصلاح الفرد بإصلاح سريرته، قال:

أصلحوا قلوبكم، فإنها إذا صَلَحَت صَلَحَ لكم سائر أحوالكم.

قال النبي ﷺ: (في ابن آدم مضغة إذا صلحت صَلَحَ لها سائر جسده، وإذا فسدت فسد لها سائر جسده، ألَا وهي القلب).

صلاح القلب بالتقوى، والتوكل على الله عز وجل، والتوحيد له، والإخلاص في الأعمال. وفساده بعدم ذلك[٢].

٢- التمسك بالكتاب والسنة:

فحين قال الشيخ عدي بن مسافر للشيخ عبد القادر: أوصني.

قال: أوصيك بالكتاب والسنة[٣].

وكان الشيخ يوصي التلميذ عنده بقوله:

يا غلام، بينتك ملازمة الكتاب والسنة، والعمل بهما، والإخلاص في العمل[٤].

وقال أيضـًا:

---

[١] الغنية ص٤٨٩-٤٩٠.

[٢] الفتح الرباني، المجلس الأول ص٧.

[٣] مرآة الزمان ج٢١ ص١٢٥.

[٤] الفتح الرباني، المجلس الثامن والثلاثون ص١٦١.

لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة... اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسنة، العاملين بهما، وحسّن الظن بهم، وتعلم منهم، وأحسن الأدب بين أيديهم، والعشرة معهم[1].

وقال الشيخ عبد القادر في تربية المريدين:

فالذي يجب على المبتدي في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح، الذي هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح، أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء، والصديقين.

فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما، أمراً ونهيـًا، أصلاً وفرعـًا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله عز وجل، ثم الصدق، ثم الاجتهاد، حتى يجد الهداية والإرشاد إليه والدليل[2].

لذلك:

كان يتألم لحال الدين، وما أصاب المسلمين بسبب ابتعادهم عنه.

فقال:

حيطان دين نبينا قد تواقعت، تستغيث بمن يبنيه، نهره قد نضب ماؤه، والرب لا يعبد، وإذا عبد عبد رياءً ونفاقـًا[3].

وقال أيضـًا:

دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه، ويتناثر أساسه، هلموا يا أهل الأرض، نشيد ما تهدم، ونقيم ما وقع[4].

٣- الدعوة إلى العلم، والتفقه في الدين، والعمل به:

---

(1) الفتح الرباني، المجلس التاسع والثلاثون ص١٦٦.

(2) الغنية ص٤٤٥.

(3) الفتح الرباني، المجلس الثاني والستون ص٣٢٧.

(4) الفتح الرباني، المجلس الثاني والستون ص٣٨٢.

كان الشيخ عبد القادر حريصاً على دروسه مع طلبته، ومع عامة الناس، ليفقهوا دينهم، ويعملوا به.

فإذا تم لهم ذلك كانوا الأداة الصالحة في إعمار البلد وصلاح الناس.

قال:

يا غلام، علمك يناديك، أنا حجة عليك إن لم تعمل بي، وحجة لك إن عملتَ بي[1].

وقال أيضاً مؤكداً على العلم والعمل به:

ويحك تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها، فلأي شيء تفعل ذلك؟ تأمر الناس، وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي. قال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[الصف: ٣][2].

وأوجب تعلم العلم لله عز وجل، فقال:

يا غلام، تعلم العلم وأخلص، حتى تخلص من شبكة النفاق وقَيْدِهِ، اطلب العلم لله عز وجل، لا لخلقه ولا لدنياه.

علامة طلبك العلم لله عز وجل خوفك ووجلك منه عند مجيء الأمر والنهي، تراقبه وتذل له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم، لا طمعاً فيما في أيديهم.

وتصادق في الله عز وجل، وتعادي فيه[3].

وأوضح أن العلماء العاملين هم النائبون عن سلف الأُمَّة، فقال:

العلماء العمال بعلمهم نواب السلف، هم ورثة الأنبياء، وبقية الخلف، هم مقدمون بين أيديهم، يأمرونهم بالعمران في مدينة الشرع، وينهونهم عن خرابها.

---

[1] الفتح الرباني، المجلس الثالث ص١٩.

[2] الفتح الرباني، المجلس العاشر ص٤٥.

[3] الفتح الرباني، المجلس الثامن والثلاثون ص١٦٠.

يجتمعون يوم القيامة هم والأنبياء عليهم السلام، فيستوفون لهم الأُجرة من ربهم عز وجل[1].

وحين كان يسمع الجبائي كتاب حلية الأولياء على ابن ناصر، رقّ قلبه، فاشتهى أن ينقطع عن الخَلْق ويشتغل بالعبادة. قال الجبائي: ومضيتُ وصليت خلف الشيخ عبد القادر، فلما صلى جلسنا بين يديه، فنظر إلَيَّ، وقال: إذا أردت الانقطاع، فلا تنقطع حتى تتفقه، وتجالس الشيوخ، وتتأدب بهم، فحينئذٍ يصلح لك الانقطاع. ينبغي لصاحب الزاوية أن يكون كالشمعة، ليستضاء بنوره[2].

وقال الشيخ عبد القادر:

تَفَقَّهْ، ثم اعتزل. من عَبَدَ اللهَ بغير علم، كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خذ معك مصباح شرع ربك، من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم[3].

٤- استخفافه بالدنيا وإنكاره على المخالفين:

قال الشيخ:

ويلك لو صح إيمانك به، واعتقادك أنه ناظر إليك، قريب منك، رقيب عليك، لاستحيت منه.

إني أقول لكم الحق، ولا أخاف منكم، ولا أرجوكم. أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذرّ، لأني أرى الضر والنفع من الله عز وجل لا منكم.

المماليك والملوك عندي سواء.

أَنْكِرُوا على أنفسكم وعلى غيركم بالشرع، لا بالهوى والنفس والطبع، ما سكت الشرع عنه فوافقوه في سكوته، وما نطق به فوافقوه في نطقه[4].

---

[1] الفتح الرباني، المجلس الثالث عشر ص٦٥.

[2] مرآة الزمان ج٢١ ص٨٦.

[3] قلائد الجواهر ص٦٤.

[4] الفتح الرباني، المجلس الحادي والخمسون ص٢٢٢.

والشيخ يرى أن لا بأس بالتمتع بمباحات الدنيا من خيرات وطيبات، إلَّا أنه كان يرى معارضة الانغماس في ملذاتها[1].

٥- العدل:

العدل مأمور به شرعـًا.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجرات: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا) – رواه مسلم.

وبذلك قال الشيخ عبد القادر:

لا تظلم أحداً في الدنيا، فإنك تؤخذ به في الآخرة.

اعدل في الدنيا حتى لا يعدل بك عن طريق الجنة.

الظَّلَمَة لما تركوا العدل عدل بهم عن طريق دار أهل العدل[2].

٦- الرحمة بالناس:

وهذه صفة ﷺ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

دعا الشيخ عبد القادر المسلم قائلاً:

يا غلام، اجهد أنك لا تؤذي أحداً، وأن تكون نيتك صالحة لكل أحد، إلَّا من أمرك الشرع بأذيته، فأذيتك له عبادة[3].

وقال أيضـًا:

---

[1] الفتح الرباني، المجلس الرابع والثلاثون ص١٤٧.

وانظر: فتوح الغيب، المقالة الخامسة ص٧.

[2] الفتح الرباني، المجلس التاسع والأربعون ص٢١٣.

[3] الفتح الرباني، المجلس التاسع عشر ص٩٣.

يا غلام، صم، وإذا أفطرت واسِ الفقراء بشيء من إفطارك...، يا قوم تشبعون وجيرانكم جياع، وتدّعون أنكم مؤمنون...، ارحم من في الارض حتى يرحمك من في السماء[1].

وقال أيضاً:

العارف خُلُقُهُ من أخلاق الحق عز وجل، فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى.

إذا رأى أحدكم ولده أسيراً في يد كافر، أليس يجتهد في تخليصه؟ فهكذا العارف، الخلق جميعهم كالأولاد[2].

٧- التواضع:

ﷺ يقول: من تواضع لله رفعه.

لذلك قال الشيخ عبد القادر:

لا تحقروا أحداً من المسلمين، فإن أسرار الحق عز وجل مبذورة فيهم، تواضعوا في أنفسكم، ولا تتكبروا على عباد الله عز وجل[3].

٨- الأعمال بالخواتيم:

هذا هو من حديث رسول الله ﷺ.

لذلك قال الشيخ عبد القادر:

يا غلام لا تغتر بعمل، فإن الأعمال بخواتمها، عليك بسؤال الحق عز وجل أن يصلح خاتمتك، ويقبضك على أحب الأعمال إليه. إياك ثم إياك إذا تبت أن تنقض ثم ترجع إلى المعصية[4].

٩- النصح:

قال رسول الله ﷺ: (الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) – رواه مسلم.

---

[1] الفتح الرباني، المجلس الثامن عشر ص٨٦.

[2] الفتح الرباني، المجلس الثالث والخمسون ص٢٣٢.

[3] الفتح الرباني، المجلس التاسع عشر ص٩١.

[4] الفتح الرباني، المجلس السابع عشر ص٨٢.

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: (بايعتُ رسولَ الله على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم) – متفق عليه.

قال الشيخ عبد القادر:

سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق، وجعله أكبر همي.

إني ناصح، ولا أُريد على ذلك جزاءً، آخرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل. ما أنا طالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا ما سوى الحق عز وجل. ما أعبد إلَّا الخالق الواحد الأحد القديم.

فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم[1].

١٠ – الجهاد:

ذكر الشيخ عبد القادر أن الله عز وجل أخبر بجهادين: ظاهر وباطن.

فالباطن: جهاد النفس، والهوى، والطبع، والشيطان، والتوبة عن المعاصي والزلات، والثبات عليها، وترك الشهوات المحرمات.

والظاهر: جهاد الكفار المعاندين له ولرسوله ﷺ، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم، يَقتلون ويُقتلون.

والجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر، لأنه شيء ملازم متكرر...، فمن امتثل أمر الله عز وجل في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة[2].

١١ – التوبة:

وتحدث الشيخ عبد القادر عن التوبة: وبَيَّن معناها لغةً وهي الرجوع. ومعناها اصطلاحـًا: وهي الرجوع عما كان مذمومـًا في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله عز وجل ومن جنته، وتركها مُقَرِّب إلى الله عز وجل وجنته.

وتحدث باستفاضة عن:

أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأُمَّة بدلالة آيات ذكرها[1].

---

[1] الفتح الرباني، المجلس السادس ص٣٧.

[2] الفتح الرباني، المجلس الثامن عشر ص٨٣.

وعقد فصلاً عن شروط التوبة وكيفيتها، فذكر أن شروطها ثلاثة:

١. الندم على ما عمل من المخالفات.

وعلامة صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع.

٢. ترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

٣. العزم على أن لا يعود إلى مثل ما اقترف من المعاصي والخطيئات[٢].

وذكر: أن المعاصي إذا كانت تتعلق بحق الله تعالى، لا تتعلق بمظالم العباد كالزنا وشرب الخمر والملاهي، فتوبته عنها بالندم والتحسر والاعتذار إلى الله عز وجل.

وأما في حق العباد فلا يخلو أن يكون في: النفوس، أو في الأموال، أو الأعراض، أو القلوب... .

فإن كانت المظلمة في الأموال فليحاسب نفسه على الذرات من أول يوم جنايته إلى يوم توبته[٣].

فإذا تخلص من مظالم العباد، وتفرغ لعبادة الله في خاصته، سلك طريق الورع... .

ولا يتم الورع إلَّا أن يرى عشرة أشياء، فريضة على نفسه، هي:

١. حفظ اللسان من الغيبة.

٢. الاجتناب عن سوء الظن.

٣. الاجتناب عن السخرية.

٤. غض البصر عن المحارم.

٥. صدق اللسان.

٦. أن يعرف مِنَّة الله عليه.

٧. أن ينفق ماله في الحق لا في الباطل.

٨. أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر.

---

[١] الغنية ص١٥٩.

[٢] الغنية ص١٦٦-١٦٧.

[٣] الغنية ص١٦٩-١٧٢.

٩. المحافظة على الصلوات الخمس.

١٠. الاستقامة على السنة والجماعة.

وأورد لكل أمر من هذه العشرة آيات تدل عليه[1].

ثم ذكر الأخبار والآثار الواردة في التوبة[2].

ثم أورد الأشياء التي تعرف بها توبة التائب، وهي أربعة:

١. أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.

٢. أن لا يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة.

٣. أن يفارق إخوان السوء.

٤. أن يكون مستعداً للموت، نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه، مجتهداً في طاعة ربه[3].

ثم أورد الشيخ عبد القادر أقاويل شيوخ الطريقة في التوبة، منها:

قول أبي بكر الواسطي رحمه الله: التوبة النصوح أن لا يبقى على صاحبها أثر من المعصية سراً ولا جهراً. ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالي كيف أمسى وأصبح[4].

هذه التوبة التي أفاض الشيخ عبد القادر الكلام فيها هي طريق الوصول إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨].

والشروط الثلاثة للتوبة التي تقدمت في كلام الشيخ هي التي ذكرها العلماء، مثل: القشيري، والقرطبي، والنووي، وغيرهم.

وإذا فقد شرط منها لم تصح التوبة أصلاً، فمثلاً:

لو ترك المعصية من غير ندم لا يكون تائباً شرعاً، وكذلك من ندم عليها لكونها أضرت ببدنه.

---

[1] الغنية ص١٧٦-١٨٢.

[2] الغنية ص١٨٣.

[3] الغنية ص١٨٩.

[4] الغنية ص١٩١.

وأُضيف شرط رابع هو: أن يكون ذلك حياءً من الله تعالى وخوفـًا منه لا من غيره.

وهذا، كما قدمنا من كلام الشيخ، إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى.

أما إن كانت متعلقة بحق آدمي، فيشترط إضافة إلى الشروط السابقة:

أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مَكَّـنَـهُ منه أو طلب عفوهُ، وإن كان غِـيْـبَـة استحلّه منها[1].

وأخيراً:

فهذه السيرة العطرة، والصورة المنيرة لهذا الشيخ الجليل عبد القادر توضح الوجه الوضاء المشرق للمسلم المتصوف الصافي، والقدوة التي يحتذى بها في الدعوة إلى الله تعالى.

ولم أجد في آثاره العلمية ما يشير إلى خروجه عن الكتاب والسنة، بل وجدت فيه عالمـًا فذاً، وداعية صالحـًا، يدافع عن حمى هذا الدين القويم وصورته الناصعة.

وكأنى أرى في سيرته سمة الرعيل الأول والسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم ﷺ أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

[1] كتابي: العقيدة الإسلامية ومذاهبها ص٦٢٦-٦٢٧ وفيه مصادره.

التصوف الإسلامي ودوره في نشر الإسلام والسلام

بين المجتمعات الهندية

د. ابراهيم الخليل البخاري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

الحمد لله الّذي خلق الإنسان وعلّمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الهادي للأمة إلى أنوار الإسلام والإيمان، وداعي البشرية إلى أعلى مراتب الإحسان، ومرشد الأتباع المتقين إلى ساحة الأمن والأمان، وهو المبعوث إلى كافة الثقلين من جميع الأماكن والأزمان، وعلى آله الأطهار ذوي البركات والأَيْمان، وأصحابه النجباء الأخيار المزكَّينَ المطهرين من الأرجاس والأدران، أما بعدُ؛

فأصحاب الجلالة والفخامة والسمو، أصحاب المعالي والسعادة، السادة الكرام، أيها الحفل الكريم،

يسرني في البداية أن أَتَقدّم بالشكر الجزيل إلى جلالة الملك عبد الله الثاني ملك المملكة الأردنية الهاشمية المعظم حفظه الله ورعاه وإلى العائلة الهاشمية الكريمة والشعب الأردني جميعا. كما يطيب لي أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من المنتدى العالمي للوسطية ومنتدى الفكر العربي على حرصه لعقد هذا المؤتمر وعلى حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة، راجيا من المولى عزّ وجل أن يحفظ المملكة الشقيقة ملكا وحكومة وشعبا ويديم عليهم جميعا نعمة الأمن والاستقرار إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إنه لمن دواعي الفرح والسرور، والغبطة والحبور، أن أقوم بين يديكم في هذه الحفلة الطيبة المباركة، المؤتمر الإسلامي الدولي الّذي يتم تنظيمه تحت شعار "التصوف الراشد؛

الجذور والآفاق ودوره في بناء الحضارة الإنسانية". فهذه مبادرة مباركة - لا شكّ ولا ريب - يقوم بها المنتدى وأصحابه، فدعوني أنتهز هذه الفرصة، أولا وقبل كل شيء أن أعبّر عن شكرنا وامتناننا -نحن الهنود- على خدماتكم الجليّة لهذه الأمة المحمدية ونشاطاتكم الجليلة في نشر قِيَم هذه الملة الحنيفية فجزاكم الله عنا وعن الأمة جزيل الجزاء.اللهم آمين.

أيها الحضار، هذا معروف لدينا جميعا أن التصوف هو صفوة ما يهتدى إليه العبد من درجات دين ربه. فعندما نبحث حول علاقة التأثر والتأثير بين اتجاهات التصوف الإسلامي وبين اتجاهات نشر الدين الحنيف، نجد أن أرض الهند هي أروع مثالٍ يشهد لكثافة العلاقة بين هذين الأمرين. فإن للمشايخ الصوفية دورا لا ينكر أبدا في بث أنوار الإسلام إلى مختلف ربوع الهند. وقبل أن أن نأتي إلى مركز المحور، فمن المستحسن أن نقف على أحوال جمهورية الهند أساسيا.

فالهند سابع أكبر دولة في العالم من حيث المساحة الجغرافية وثانيها من حيث عدد السكان، تقع في شبه القارة الهندية جنوب آسيا. ومن المعروف لدى الجميع، أن الائتلاف رغم الاختلاف في العادات والتقاليد والديانات واللغات مزية عظيمة يتمتع بها أبناء الهند، وتشير الإحصائيات إلى أن هناك في البلد نحو ألف وخمسمائة لغة رسمية وغير رسمية.

إخوتي الأكارم، ومن الجدير بالذكر أنه يعود تاريخ الإسلام في الهند إلى مبدء تاريخ البشر في الأرض إذ نزل أبونا أبو البشر آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بأرض الهند كما روي الإمام الحاكم في مستدركه " إن أول ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند". ويقول رحالة العالم ابن بطوطة أنه رأى أثر قدم آدم عليه السلام على صخرة في جبل آدم في أرض الهند.

وعلى الرغم من أنّ الهند كانت ساحة أبينا أبي البشر آدم عليه السلام لكنها في مر العصور تساقط أهاليها إلى غيابة جب الكفر وصاروا عديمي الإيمان بالله الواحد الأحد وأنبياءه عليهم السلام. فديار الهند، نبت على ظهرها في ممر الدهور أديان متفرقة حتى دخل إليها أشعة الدين الحنيف مرة ثانية في عهد النبي ﷺ أو في زمن الصحابة أو التابعين على خلاف فيه بين العلماء المؤرّخين. ثم تتابعت سلسلة الدعاة الكرام الّذين بذلوا نفسهم

ونفيسهم لأجل نشر نور التوحيد في تربة الهند حتى دخل في الإسلام عدد لا يحصى من الهنود في مختلف العصور.

وههنا أسترعي انتباهكم أيها الإخوة إلى مقولة يردّدها أعداء الإسلام حينا بعد حين، وذلك أن الإسلام دين قد انتشر بمجرد السيف...! يا للعجب، كيف لهم أن يرموا الإسلام بأنه لم يكن له حظ في الحصول على الأتباع إلا عن طريق الإكراه والإجبار فحسبُ...؟؟

كيف؟ والتاريخ الإسلامي سيما في الديار الهندية شاهدة بأن تلك الدعايات الكاذبة لا تَمُتُّ بصلةٍ إلى الحقيقة. فإننا إذا قمنا بمراقبة أنه كيف كان بداية نشر الإسلام في الديار الهندية نمرّ على واقعة تاريخ رائعة ولامثالية.

أيها الأفاضل، فدعوني أدعوا انتباهكم إلى ذلك العصر الأول الّذي دخل فيه الإسلام إلى مليبار الهند. فعلى ما اعتمده الباحثون والمؤرّخون أن الإسلام وصل إلى الهند عن طريق وفد دعويّ تحت إشراف سيدنا مالك بن دينار ﷺ. فعندما وصلوا إلى ساحل مليبار بعد قطع مسافات بعيدة في البحر مالوا إلى الاستراحة في ساحل البحر نفسه من جراء تعبهم ونصبهم من رحلتهم. وكان شخصٌ واحدٌ من الكفرة يدعى بـ "تيّان"، -وهي نسبة إلى طائفة من طوائف المجتمع الهندوكي كان يتخد طلوع شجرة النارجيل كحرفة معيشة لهم- يشاهد وصول الوفد من أعلى شجرة نارجيل على ساحل البحر. فعندما رأى في وجه أفراد الوفد تعبا ظاهرا أتى لهم بفاكهة نارجيل كي يشربوا ماءها ويستريحوا من تعبهم إلا أنهم أبوا قبول ذلك النارجيل دفعة إلا وقد استفسروه أولا أنه إلى مِلْك من يرجع هذه الهدية؟ وهل مالكه يرضى عن هذه الهدية أم لا؟ وما إلى ذلك من الأسئلة التي طرحوها أمام هذا الشخص. فأعجبه هذا التعامل الحسن والورع الرائع من الوفد الجماعي حتى استفاض خبرهم طول قرى مليبار ومدنها مما ساهم الشيء الكثير في تسريع سير النشر الإسلامي في الهند منذ بدايتها.

فعندما قدم المسلمون إلى مليبار الهند من جزيرة العرب كتُجّار وسياحين استقبلهم سكانها واستضافهم وأكرمهم وتعاون معهم الملوك الهنادكية واليهودية وقدّموا لهم دعما

ماديا ومعنويا لبناء المساجد والمدارس الدينية. علاوة على ذلك قد أعجب الملوكَ تعاملُ المسلمين وتدخلهم مع الناس في قضاء حوائجهم وحل مشاكلهم وحضورهم في المفاوضات على سد أعداء الوطن والملوك.

ثم حظيت الهند في مختلف عصورها بخدمات نيرة من أعيان علماءها الكرام والسادات الأشراف من أهل بيت النبي الطاهر ﷺ، عزّزوا الدعوة الإسلامية في تربتها وتسببوا في اعتناق جموع الهنود الغزيرة الإسلام وتحقيق الأمن المجتمعي والتعايش السلمي بين ذوي الديانات المتفرقة. وكان على مقدمتهم مشايخ كُثر مثل سيدي سلطان الهند الشيخ معين الدين بن حسن الجشتي الأجميري والشيخ مجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد السرهندي، والشيخ شاه ولي الله الدهلوي والشيخ أحمد رضا خان البريلوي والشيخ زين الدين أحمد بن علي المخدوم الأول والشيخ زين الدين المخدوم الثاني صاحب كتاب فتح المعين والسيد علوي بن سهل مولى الدويلة الممبرمي والقاضي عمر البلنكوتي وغيرهم من الأصفياء قدس الله أسرارهم ونفعنا بهم وأسرارهم في الدارين.

كما أنه قد أثر في الصحوة الإسلامية التي شهدتها القرون الوسطى في الهند تأليفات العلماء الكرام والسادات العظام ﷺ أجمعين. فتأليفاتهم النافعة في الفنون الإسلامية كلها سيما في فن التصوف مثل منظومة "هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء" ومثل الكثير من المنظومات والمنثورات في اللغات الهندية العجمية قد ساعد إلى حدّ كثير على بذر قيم التزكية النفسانية والمجتمعية على حد سواء في قلوب المسلمين كما كان لها دور فعال في تعزيز العلاقات الإنسانية بين المجتمع. وبهذا الطريق السمي العالي تم تجذيب قلوب ذوي الديانات الأخرى إلى نور الإسلام فازداد عدد المسلمين في التربة الهندية في جوّ سامٍ يسوده الأمن والأمان والراحة والاطمئنان. وفي نفس السبيل تم الحماية على قيم التعايش السلمي بين الديانات المتعددة وذويها في الأجواء الهندية. فإن الهند – كما أسبقنا سالفا – ملتقى المنتمين إلى أديان مختلفة وطبقات متعددة ومجتمعات عديدة إلا أنها تحتضن أتباع جميع

الفئات تحت مظلة من الأخوة مع حماية طقوسها الجلية. عندما نقلب صفحات تاريخ الهند، سيما الديار المليبارية نستطيع أن نقرأ مزيدا من القصص التي تدل على أخوتها وصداقتها وثقافتها الراقية.

إخوتي في الله، فنحن عندما نحدثكم إنما نتحدث عن تجربة واقعية جربناها في مليبار جنوب الهند حيث سلكنا نفس الطريق الذي رسمه لنا أسلافنا بعد أن جرّبوه وحققوا نجاحا في هذا الصدد. هنا يطيب لي أن أشارك معكم نموذجًا من تجربتي كرئيس لجامعة معدن الثقافة الإسلامية بمدينة مالابرام في كيرالا الهندية. حيث إن الجامعة تقوم بتنظيم مؤتمر إسلامي هندي كبير بمناسبة إحياء ليلة القدر في ليلة الـ ٢٧ من شهر رمضان الفضيل، ويعد هذا التجمع من أكبر التجمعات الإسلامية في شبه القارة الهندية والتي يجتمع فيها مئات الآلاف من المسلمين. ويتميز هذا التجمع بمنح فرصة للجماهير لتجديد تعهدهم من خلال برنامج " التوبة الجَماعية" الذي يلعب دورا فعالا في تزكية نفوس المؤمنين وتطهيرهم من الأفكار الرذيلة والأعمال الشنيعة وبدء حياة جديدة صافية.

كما يختتم هذا التجمع بحلف "التعهد الجَماعي " حيث يقوم كل واحد من الحضور بتأدية التعهد في وقت واحد بأنه لن ينخرط في أي نشاط يضر بأخيهولا يكون طرفا في الأنشطة التطرفية والإرهابية ولا في الأعمال التي تخالف قانون البلاد وتُزَعزع أمنها واستقرارها، كما يحترم بتراث الهند العريق وثقافتها المتنوعة ويلتزم بدستورها ويؤدي واجباته تجاه دينه الحنيف. والصيغة التالية كانت مضمون التعهد الجماعي في إحدى السنوات الماضية :- " نحن عباد الله وأتباع النبي محمد ﷺ، ونؤكد أننا سوف نسعى جاهدين لتعزيز شرف ورفاهية أسرتنا وأصدقائنا ومعلمينا والبشرية جمعاء، وسنكون في المقدمة لتقديم يد العون للفقراء والمظلومين، لقد اجتمعنا هنا عشية الـ٢٧ من رمضان لتجديد عهدتنا تجاه ديننا الحنيف والامتناع عن كل ما حرم الله وتكريس أنفسنا في خدمة الإنسانية وأننا نعيش حياة خالية من جميع الخطايا والتجاوزات ونؤكد من جديد أن انتهاك حقوق زملائنا يشكل جريمة خطيرة للبشرية وأننا نقيّم كرامة الآخرين، ونحمد الله على توفيقه للهداية إلى ديننا الإسلام ونفتخر

بكوننا مسلمين، ونحن نفهم أن كلا من عمليات الإرهاب والتطرف والعنف والكراهية والاشتباكات بين أبناء البشر يؤدّي إلى عدم استقرار بلدنا العظيم. وسنبقى يقظة ضد القوى التي تعمل على تدمير وحدانية الإنسانية"

ورغم أن هذا التجمع نوع من التجمعات الدينية إلا أنني شاهدت فيها عناصر إيجابية في خلق تعايش سلمي مجتمعي في تلك المنطقة حيث إن إخواننا الهندوسيين المقيمين بجوار جامعة معدن الثقافة ينضمون إلينا ويعملون كعضو منا لنجاح هذا المؤتمر، حتى أن بعضهم يسمحون للحضور المسلمين للصلاة على أراضيهم وبيوتهم دون استلام أي مقابل على مساعدتهم المادية والمعنوية. فهناك في الآونة الحالية نشاطات متجانسة رائعة على هذا النحو للمنظمات الإسلامية والمؤسسات التربوية الدينية نالت قبولا واسعـًا لدى الحكومة والشعب على حد سواء.

وعائدا إلى المحور الرئيسي، فإنه من الواضح وضوح نور الشمس في رابعة النهار أنه كيف أثر التصوف الإسلامي في بناء الحضارة الإنسانية وتحقيق الأمن والاستقرار في أوساط الديار الهندية ماضيا وحاضرا. فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف. واللهَ المولى عزّ وجلّ نسألُ، أن يزكّي أنفسنا ويثبت أقدامنا في مراتب الإيمان والإسلام ويهدينا نحو أعلى درج الإحسان، حتى أن تتوفّانا يا ربنا وأنت راضٍ عنا يا أكرمَ الأكرمِينَ ويا أرحم الراحمين.

تقبل الله منا ومنكم، والدعاء الخالص مرجوّ منكم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دور التصوف الراشد
في الابداع الحضاري: عائشة الباعونية أنموذجاً

د. انصاف أيوب المومني

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وآله وصحبه.

تشهد الإنسانية اليوم تغيرات في شتى مناحي الحياة لا سيما في ميدان المنظومة الاجتماعية والأسرية، والتي تمثل في مجملها مؤشراً على نقلة تربوية للحياة الإنسانية. يستدعي ذلك منا فهمـاً دقيقـاً ووعيـاً خاصـاً لطبيعة التغيرات التربوية وتداعياتها؛ من أجل الإعداد المتوازن لشخصية المسلم المعاصر انطلاقـاً من التربية الإسلامية في صدر الإسلام مروراً بالتراث التربوي الإسلامي إن كنا نرغب في ملء الفراغ لأمة الوسطية وعالمية رسالتها؛ لولوج بوابة الإبداع والشهود الحضاري بعيداً عن ثقافة اليأس والهزيمة النفسية.

إن العمران الكوني والنهوض الحضاري لا يمكن له أن يبدأ من الصفر الحضاري، فالبناء الحضاري والمعرفي تراكمي. وللأمة الإسلامية تراث فكري ثري لا يمكن تجاوزه،والقرآن الكريم يدعونا إلى القراءة الواعية الناقدة للتاريخ (الأستاذ المعلم) قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الأنعام: ١١]

وإن الدور الذي تضطلع به المرأة المسلمة المعاصرة في إشعال فتيلة الإبداع الحضاري يعد دوراً مفصليـاً ومحوريـاً،وعلى جبين صفحة التاريخ قدوات رائدة، وقصص نجاحات لنساء خالدات في عمق التاريخ الإسلامي يمكننا استنطاق معالم تربوية إسلامية من جهودهن وسيرَهُن الذاتية.

وتستقل منظومة التربية الإسلامية المنشودة في التصور الإسلامي بجملة من المقومات تعبر بوضوح عن المرجعية العقدية لها، والتي تأبى أن تكون صدىً ورجعـاً عن واقع مكرر

أو استنساخ لايدولوجيات وافدة مغرضة تحاول استلاب هويتنا وخصوصيتنا الثقافية لا سيما لنموذج المرأة المعاصرة.

وقد دأبت الأقلام الملتزمة ذات الحس الإسلامي في العصر الراهن استقراء التراث التربوي الإسلامي عبر تاريخه الطويل في سبيل استبطان شحناته التربوية والحضارية القادرة على التأثير على مجريات الأحداث، والخروج من قوقعة الانتظار إلى آفاق الفعل، والبناء والذي يعلن مبدأ الوحدة بين الدنيا والآخرة ويربطنا بعوالم الغيب.

وتأتي هذه الدراسة نافذة على فضاء التراث التربوي الرحب؛ لاستعراض جهود العالمة المسلمة الأردنية (عائشة الباعونية) والتي تعد من رائدات التراث والفكر الإسلامي لعالمات من وطننا الحبيب (الأردن)مؤكدة على أهمية الجانب التطبيقي لا النظري: "حيث إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة إلا أن حصول الملكات المباشرة والتلقين أشدُ استحكاماً وأقوى رسوخاً"[1].

وقد جاءت خطة الدراسة على النحو الآتي:

تناول المطلب الأول: (التمهيدي) المقدمة.

تناول المطلب الثاني: إطلالة مختزلة على العصر المملوكي معرجاً على السيرة الذاتية لعائشة الباعونية.

تناول المطلب الثالث: معالم تربوية من السيرة الذاتية لعائشة الباعونية وقد اشتملت على:

- التنشئة الأسرية التي توسع فضاء الحرية المنضبطة.
- الرحلة في طلب العلم والحرص على نيله من المتمكنين.
- الإخلاص والأثر الذي يتركه.
- دور المسجد في العمران الإنساني.

[1] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت – دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، ص ٤٦٤.

- المرأة الرسالية ودورها الفاعل.
- الاستمرارية في طلب العلم والعطاء له.
- أهمية الثراء الوجداني للمرأة المفكرة.

تناول المطلب الرابع والأخير: تقييم عائشة الباعونية بإيجاز من حيث الأثر الذي تركته وأقوال أهل العلم فيها، والاتساق بين أرائها المختلفة والنقد الموجه لها.

وختمت الدراسة بالنتائج والتوصيات

إطلالة على عصر عائشة الباعونية:

كانت بلاد الشام زمن المماليك منبراً من منابر العلم انتشرت فيها مجالس العلم، والحلقات والمناظرات العلمية في المدارس والمساجد.

وقد ساهم على تنشيط الحركة العلمية هجرة عدد كبير من العلماء من العراق وفارس بعد الاجتياح المغولي لها، وكان من أهم نتائج تلك الحركة العلمية وجود هذا العدد الضخم من العلماء، والمؤلفات العلمية في ميادين مختلفة[١].

ومن الظواهر العلمية المميزة لعصر المماليك ظاهرة (النساء العالمات)، فإذا تصفحنا المؤلفات التاريخية التي سجلت لذلك العصر نجد فيها أسماء مجموعة كبيرة من عالمات المسلمين[٢].

وقد تناول عدد من المؤرخين في كتب التراجم هذه الظاهرة.

اسمها ونسبها وولادتها:

هي العالمة المسلمة الفقيهة الأديبة "عائشة بنت يوسف بن ناصر الدين الباعونية الدمشقية" وتكنى بأم عبد الهادي وبأم عبد الوهاب[٣] وتعرف ببنت الباعوني[١]. ولدت عائشة

---

[١] عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر وبلاد الشام، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م، ص ٣٥.

[٢] فارس أحمد العلاوي، عائشة الباعونية الدمشقية أشهر أعلام دمشق أواخر عهد المماليك، دمشق، دار معهد، ١٩٩٦م، ص ١٤.

[٣] لمزيد من التوسع ينظر: المجموعة التاجية، مجلة المجمع العلمي العربي ١٦:١٦ – الكواكب السائرة – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

- على الأرجح – في الربع الثالث من القرن التاسع الهجري، ربما عام ٨٦٠هـ - ١٤٥٥م في إحدى قرى (عجلون)[٢] الشمال الشرقي من الأردن في قرية (باعون)، كما قيل في ولادتها أنها ولدت في الصالحية في دمشق ببيت عريق بالعلم والورع[٣] ويذكر أنها انتقلت إلى مصر عام (١٩١٩م) فنالت قدراً أكبر من العلوم حظاً[٤]. ومما تجدر الإشارة إليه أن مجالسها العلمية كان يحضرها عشرات الرجال ممن تتلمذوا على يديها[٥].

أسرة ونشأة عائشة الباعونية:

تنسب عائشة الباعونية إلى بيت عريق ذي دين ونسب وعلم، ازدهر فيه الأدب والفقه فقد كان أبوها وجدها قاضيين، وأبوها القاضي يوسف بن أحمد بن ناصر الباعوني (٨٠٥ – ٨٦٤هـ) ولد في بقاعة الخطابة في المسجد الأقصى ثم انتقل به أبوه إلى دمشق، تقلد عدة مناصب إدارية عليا في دمشق وطرابلس وحلب وغيرها، من مؤلفاته النظم الحسن، عقب خمسة أولاد هم: عبدالله، وعائشة الباعونية، ومحمد، وأحمد، ومحمود[٦].

---

[١] ابن الحنبلي، دار الحبيب في تاريخ أعيان حلب، ج١، حققه محمد أحمد الفاخوري ويحيى بن زكريا عبارة، دمشق، وزارة الأوقاف، ١٩٧٣م، ص ١٦١.

[٢] تقع باعون في محافظة عجلون في الشمال الشرقي من الأردن، وهي منطقة جبلية دائمة الخضرة فيها عين صافية يؤمها السياح لروعة جمالها واعتدال طقسها، وتبعد عن قلعة صلاح الدين الأيوبي ومسجد عجلون الأيوبي بضع كيلومترات، حيث كان لعجلون أهمية استراتيجية وثقافية عند صلاح الدين الأيوبي.

[٣] عائشة الباعونية، البديعية وشرحها، الفتح المبين في مدح الأمين، تحقيق عادل الغزاوي، عباس ثابت، مرجع سابق، ص٦.

[٤] خير الدين الزركلي، الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٣، د – ت ج٤، ص٦.

[٥] يعقوب العودات، القافلة المنسية من أعلام الأردن، الأردن، عمان، ١٩٤١م.

[٦] عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في المسجد الأقصى، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م، ص٢٢٥ – ٢٢٦.

وقد نشأت الباعونية في علم، وفقه، وآداب، ووجاهة، وقد تلقت في طفولتها المبكرة أعذب أنواع العلوم. "وربما كان بعض أفراد أسرتها أساتذتها الأوائل، جرياً على سنة التدريس الباعوني، فأخواها أحمد ومحمد تتلمذا لعمهما البرهان الباعوني[1]. وقد وصفها ابن العماد بأنها العالمة العاملة الدمشقية أحد أفراد نوادر الزمان أدباً وعلماً، وخلقاً، وشعراً وديانةً[2].

حفظت القرآن الكريم وهي في الثامنة من عمرها، وقالت "أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز ومنَّ علي بحفظه على التمام"[3].

ومن بعدها "حُملت إلى القاهرة ونالت من العلوم حظاً وافراً وأجيزت بالإفتاء والتدريس"[4]. وقد ذُكرت في بطون أعظم الكتب، فقد ذكرها ابن العماد الحنبلي والغزي وغيرهم.

"تزوجت عائشة الباعونية بواحد من أشراف دمشق أحمد بن محمد بن أبي بكر الذي ينتمي نسبه إلى الحسين بن علي ﵁"[5]، "وقد رزقت بمولود أسمته عبد الوهاب، وبمولودة أسمتها بركة"[6].

"وقد تتلمذت على يد شيوخ، وعلماء الشام الكبار أمثال: إسماعيل الخوارزمي، يحيى الأموي، ورحلت إلى مصر لتنهل من علمائها، وصار لها حلقات تدريس وتخرّج علماء كبار

---

[1] السخاوي، الضوء اللامع، مجلد١، ص٢٦ – ٢٩.

[2] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق.

[3] نجم الدين الغربي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٨٨.

[4] نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٨٨.

[5] نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٧.

[6] نجم الدين الغزي، المرجع السابق، ص٢٥٧.

من مجالسها، ومن أشهر تلاميذها: محمد بن علي طولون شيخ مؤرخي الشام في أواخر العصر المملوكي"[١].

كانت لعائشة الباعونية رحلات دينية، فقد حظيت بزيارة الكعبة ومجاورتها، وزارت مدينة ﷺ وأنشدت بعض قصائدها عندما شاهدتها رقت روحها ومشاعرها قائلة:

فقد جلست انهي قصتي لشفيعي   بتـــذللي وترفقـــي وخضـــوعي
والآن قد أوجفت بابك ســـيدي   لتكـــون عنـــد الإلـــه شـــفيعي[٢]

"كما أنها ارتبطت بعلاقة وثيقة مع علماء عصرها فكتبت فيهم الأشعار وردوا عليها ومن ذلك محمد بن إمام الترمذي"[٣].[٤]

أما عن وفاتها فالمصادر تؤكد أنها توفيت بدمشق وقبرها في بستان الشلبي في منطقة " رقاق طاخوتة الأحمر" من ضواحي دمشق عام ٩٢٢هـ[٥]. وقيل إنها دفنت بتربة الروضة بسفح قاسيون في دمشق[٦].

مؤلفاتها:

لعائشة الباعونية - رحمها الله - عدد من المؤلفات في ميادين علمية متنوعة، ولكن يغلب عليها طابع الأدب والشعر، ومما يدعو للأسف أنه لم يبق منها إلا القليل[٧]"ولعل

---

[١] نبيله حسن القوصي، الشيخة العالمة الأديبة عائشة الباعونية، موقع نسيم الشام www.naseemalshami.com.

[٢] ماجد الذهبي، صلاح الخيمي، ديوان عائشة الباعونية، مقالة في مجلة التراث العربي، عدد٤، ١٩٨١م، ص١١١.

[٣] ولد في عام ٨٥٤هـ - وتوفي عام ٩٢٥هـ، اشتغل بالعلم في القاهرة وتولى القضاء في حلب. ينظر: النجم الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٩.

[٤] عائشة الباعونية، ديوان عائشة الباعونية مخطوط ٢ دار الكتب، رقم ٣١٩.

[٥] النجم الغربي، الكواكب السائرة، ج١، ص٢٩٢.

[٦] نبيله حسن القوصي، مرجع سابق،

[٧] ابن الحنبلي، در الحبيب، ج١، ص١٠٦٤، مرجع سابق.

الباعونية هي المرأة الوحيدة في تاريخ حضارتنا الإسلامية التي كان لها عدد كبير من المؤلفات لم تضارعها في مثلها امرأة أخرى على الإطلاق[1] ومنها:

١-"البديعية وشرحها الفتح المبين في مدح الأمين" قام بتحقيقه كل من عادل الغزاوي وعباس ثابت، وهو عبارة عن كتاب تعليمي أدبي بلاغي، ويعد مصدراً أصيلاً من مصادر التعرف إلى شعر الباعونية التي كانت خنساء عصرها، والكتاب عبارة عن قصيدة شعرية في مدح النبي - ﷺ - يمكن أن توصف بأنها (بديعية) لاشتمالها على فنون البلاغة والبديع[2].

٢-القصائد النبويات وهي ضمن قصائد طوال في المدائح النبوي توجد منهما نسختان خطيتان بدار الكتب الظاهرية بدمشق.

٣-تشريف الفكر في نظم فوائد الذكر.

٤-المنتخب في أصول الدين.

٥-المعجزات والخصائص النبوية.

٦-فتح المجيب بمتعلقات قوله تعالى "وإذا سألك عبادي عني فاني قريب".

٧-كيفيات الصلاة على النبي ﷺ.

٨-فيض الوفاء في أسماء المصطفى.

٩-مولد النبي ﷺ، وقد تم طبعه في مطابع دمشق.

١٠- صلات السلام في فضل الصلاة والسلام. وهي أرجوزة لخصت فيها كتاب (القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع) للإمام الحافظ (شمس الدين السخاوي).

---

[1] قنديل، الفنون الشعرية المستحدثة، ص٢٣٩.

[2] عائشة الباعونية، البديعية وشرحها الفتح المبين في مدح الأمين تحقيق عادل الغزاوي، وعباس ثابت، دمشق، دار الكنانة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، ص ٥.

١١- المورد الأهنى في المولد الأسنى.

١٢- الفتح الحقي من منع التلقي.

١٣- الإشارات الخفية في المنازل العلية.

١٤- در العائض في بحر المعجزات والخصائص.

١٥- الملامح الشريفة والآثار المنيفة.

١٦- الفتح القريب في معراج الحبيب وهو مفقود.

١٧- ديوان عائشة الباعونية ويسمى (فيض الفضل) وهو الكتاب الباقي من مؤلفاتها المخطوطة دون طباعة. حيث خطت فيه قصائدها في مدح النبي- ﷺ- أو مدح أعيان وأدباء عصرها، أو أجابت على بعض الأسئلة الفقهية التي وجهت إليها شعراً[1]

المطلب الثاني

من خلال استعراض السيرة الذاتية (لعائشة الباعونية) نخلص إلى عدد من المعالم والدلائل التربوية يمكن للقائمين على التربية استثمارها، وتفعيلها في مختلف مناحي الميادين والساحات التربوية وهي على النحو الآتي:

- **التنشئة الأسرية وتوسيع فضاء الحرية المنضبطة والواعية**

إن البيئة الأسرية لها أثر كبير في إعداد جيل الغد، فهي المؤهلة لصناعة العناصر البشرية للحاضر والآتي نهوضاً وإبداعا، أو انتكاساً وارتكاساً "فالأسرة هي الخلية الأولى في المجتمع وأول ما يتصل الطفل به بعد ولادته، ويتفاعل معه ويكتسب عن طريق تفاعله معه أساسيات لغته وقيمته ومعايير سلوكه، وعاداته، واتجاهاته النفسية ومنها تتكون لديه صور الحياة المستقبلية"[2].

[1] المغربي، اثنا عشر كوكبا، ص٦٤٩.

[2] جليل وديع شكور، تأثير الأهل على مستقبل الأبناء على صعيد التوجيه الدراسي والمهني، دراسة ميدانية، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٩٩٧م، ص٩٥.

فإما أن ينشأ فرداً واعياً في المجتمع ينظر إلى الآتي ببصيرة نافذة وعزيمة صلبة، أو شخصاً عاجزاً لا يملك حاضراً فضلاً عن مستقبله[1]. ذلك أن عملية البناء والتكوين النفسي تأخذ صفاتها وملامحها الأساسية في مرحلة الطفولة والمراهقة، أما ما يحدث بعد ذلك فهو تعديل في التوجيهات، والغايات يستمد فاعليته مما يحمله الفرد من طاقة وصفات نفسية اكتسبتها في مراحل عمرية مبكرة[2]. وكما هو مشهود لعائلة عائشه الباعونيه فقد نالت أرقى أنماط التربية الأسرية منذ نعومة أظفارها "فقد تلقت الرعاية الأسرية بامتياز اسمعها والدها بحب وشغف علوم الدين واللغة والأدب"[3].

بل قيل إن (التعليم العائلي) كان عادة الأسر الباعونية، فليس عجباً أن يكون العالم منهم شيخه الذي تتلمذ على يديه أبيه أو عمه.

لذا نجد عائشة الباعونية قد أتمت حفظ القرآن الكريم قبل أن تتم الثامنة من عمرها، وقد نسجت أنواره في تفاصيل غدها القادم، ومن البديهي أن الحفظ المبكر للقرآن بهذه الطفولة المبكرة يعود الفضل فيه لله ومن ثم للأسرة.

يقول ابن خلدون: "إن تعليم القرآن للأجيال الناشئة ضرورة محتومة إذا ما أُريد لهذه الأجيال أن تكون مسلمة حقاً، بل إن تعليم القرآن مبكراً أساس انطلاق الملكات، حيث إن القرآن أصل التعليم الذي بني عليه ما يحصل بعده من ملكات"[4].

كما أن أسرة عائشة الباعونية كما يبدو لنا جلياً من ملامح سيرتها الذاتية قد منحتها قدراً كبيراً من الثقة الواعية بالنفس إضافة إلى الحرية المطلقة وفق الرؤية الإسلامية والتي ترفد

[1] سمير كامل أحمد، شحاته سليمان، تنشئة الطفل وحاجاته بين النظرية والتطبيق، الاسكندرية، مركز الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٨٦.

[2] عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، ١٩٨١م، ص٢٢٣.

[3] نبيلة حسن القوصي، الشيخة الأدبية عائشة الباعونية، موقع نسيم الشام www.naseemalshami.com. مرجع سابق.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص ١٤٠، مرجع سابق.

التميز والإبداع، حيث إن بناء الثقة في نفس الطفل هي الركيزة التي تدور حولها التربية السليمة، إذ إن من أكبر المقاتل التربوية أن يخرج الطفل إلى الحياة انطوائيـاً مهزوز النفس؛ لذا عمق النبي ﷺ الثقة في نفس الطفل بحفظ قدره واحترام شخصه[1]عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه -عن النبي - ﷺ - قال: "أُتي بقدح فشرب منه، وعن يمينه غلام أصغر القوم، والأشياخ عن يساره، فقال: يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ؟ قال: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحداً يا رسول الله، فأعطاه إياه"[2].

كما أن ثقافة الحرية ومهارة وفن تعامل المنظومة الأسرية معـًا وفق الرؤية الإسلامية وتوسيع فضاءاتها في مساحات التربية الأسرية تثمر أجيالاً قادرة على الإبداع والتميز والتفرد[3].

"فأي إنسان خمدت في صدره نار الحرية وأظلمت جوانب عقله من إشعاعها الساطع جدير بأن لا يغير إنسانـاً، وأن لا تسقط عنه تكاليف الحياة[4].

وتلك الحرية الواعية المنضبطة التي أتاحت لعائشة الباعونية طلاقة التعبير عما يعتمل بداخلها من مخزون من القدرات، والملكات الكامنة من خلال التأليف والكتابة والتدريس بالمساجد وما يدور من مساجلات شعرية بينها وبين أقرانها من العلماء والشعراء إضافة إلى حرية التنقل والبحث عن فرص العلم وتعلمه بأزهى صوره بعيداً عن القمع الأسري الذي يجفف قنوات التميز و الإبداع.

---

[1] سليمان بن عوض قيمان، أسرار القيادة النبوية والتأثير، منظمة النصرة العالمية، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ص١٦٢.

[2] اخرجه البخاري في الجامع الصحيح في كتاب المساقاة، باتب في الشرب حديث رقم ٢٢٤٧.

[3] علي العمري، آفاق الحرية، السعودية، جدة، دار الأمة، ٢٠١٤م، ص٦٠.

[4] أحمد لطفي السيد، مبادئ في السياسة والأدب والاجتماع، القاهرة، كتاب الهلال، ١٩٦٤م، ص٢٢٥.

- **الإخلاص وبقاء الأثر**

كلما كانت نية الإنسان خيرة وخالصة لله تعالى كان ذلك أكثر مساعدة على التقدم في العلم والعمل؛ لأن الله تعالى معينه في ذلك، وموفقه في تحقيق هدفه، كما أن الإنسان إذا خلت نفسه من النيات السيئة زاد نشاط عقله، وزاد استعداده لتقبل المعلومات أكثر ممن تمتلئ نفسه بالسيئات[1].

كما أن تعلم العلوم وتعليمها يتطلب روحـًا شفافة وقلبـًا صافيـًا، وعقلاً هادئـًا، وهذا لا يتحقق إلا بالاستقامة بعد تجنب المعاصي والآثام ظاهراً وباطنـًا؛ لأنه لا يكفي ترك ذلك ظاهراً وإنما يجب إبعادها عن النفس وإخراجها من التفكير أيضـًا؛ لأن ارتكاب الشرور والرذائل يضعف العقل وينهك قواه[2].

قال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ (٢٨٢) ﴾ [البقرة ٢٨٢]، واتقوا الله أي خافوه، واتبعوا أمره[3]، ويعلمكم الله وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي: يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه، وقد ألقى الله في قلبه ابتداءً فرقانـًا، أي : فيصلاً يفصل بين الحق والباطل[4].

ولعل استدعاء هذا البعد الذي تقزم وتقلص على الساحة العلمية والتعليمية في اللحظات الراهنة بات ضرورة ملحة. ولاسيما في عصر الشهادات العلمية والدرجات الدنيوية والسباق على الارتقاء في ميزان الدنيا.

وأيضـًا في ثنايا وتفاصيل ما سطرته حروفها تلمس عبق الإخلاص، والتجرد والانكسار لله تعالى، فقد ختمت الباعونية البديعية بقولها: "أنجزت كتابتها بمنة من الله تعالى على يدي

---

[1] مقداد يالجن، الطريق إلى العبقرية، .

[2] مقداد يالجن، توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، الرياض، دار المريخ، ١٩٨٢م، ص ٥٣-٥٤.

[3] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج / ص٣٣٨.

[4] القرطبي، الجامع لاحكام القرآن العظيم، ج٣/ ص٤٠٦.

أضعف إماء الله تعالى وأحوجهن إلى رحمته من أهلَها لمدح خير بريته، وأشرف أهل الاصطفاء لرسالته عبده الأكرم ورسول الله ﷺ الأعظم"[1].

يقول ابن خلدون في مقدمته في صدد الحديث عن (الفتح الرباني)[2]الطاقة الروحية والإيمانية :"فإذا أشرقت عليك أنوار الفتح من الله ظفرت بمطلوبك"[3].

ويقول الغزالي" أيضـًا أن نوراً انقدح في نفسه فأضاء له الكون"[4].

ونصرة الله لعباده المخلصين بتخليد أثرهم والقبول في نفوس الخلق: لقوله تعالى﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر :٥١]

- **الاستمرارية في طلب العلم وتعليمه.**

الاستمرارية في طلب العلم فلا يقف المتعلم والعالم عند حد في العلم، ولا يكتفي بالمتاح مع إمكانية إيجاد الأفضل والاستزادة من العلم، فإن ذلك طريق التفوق والإبداع؛ لأنه لو توقف الناس على ما ألفوه مما يسوغ البحث فيه لما وصل العالم إلى ما وصل إليه من تقدم في كثير من المجالات،والمسلم أولى بالسبق والقيادة والريادة؛ لأن أمته أمة رائدة[5].

---

[1] هذه الفقرة ساقطة من أدب، وقد أتيها عبدالله مخلص في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ١٦، ١٩٤١م، ص ٦٨، نقلاً عن عائشة الباعونية شرح البديعة وشرحها.

[2] الفتح أو ما يمكن تسميته الفتوحات الربانية أو البصيرة أو النور الرباني أو الطاقة الإيمانية والروحية قد يشير إلى القوة العاملة المدركة بالإنسان ويشار إليها بالروح أو الفتح نوراً يلقيه الله بالروح لمن يشاء، وقد تحدث عنه عدداً من العلماء منهم: ابن خلدون، وابن الجوزي، والغزالي، وقد استنبطوه علماء المسلمين من مصادر الوحي الأصيلة، عَسُر على المستشرقين أن يتصوروا حقيقته.

[3] شهاب الدين رجب، الدرر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون، الشارقة، دار الفتح، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص١٣٧.

[4] ابو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٣م، ص١٨٠.

[5] خالد بن حامد الحازمي، التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، عدد١١٦، ١٤٢٢هـ، ص٤٣٨.

وقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم "منهومان لا يشبعان. منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع"[1] يؤكد على استمرارية العلم ومداومته والاستزادة منه.

والفيصل في ذلك كله قوله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء: ٨٥]، وقوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[طه: ١١٤].

وهذه سمة عامة وغالبة لعلماء السلف الأبرار إضافة إلى العلم الموسوعي الشديد الالتصاق باستمرارية العلم، والرغبة بالمزيد من الاستزادة والاستفادة.

يقول ابن تيمية: "لا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعد الموت وتنفع للآخرة"[2].

فالسيرة الذاتية السالفة لعائشة الباعونية تعد شاهداً على شغفها بالعلم والتزود به حتى آخر عهدها بالحياة الدنيا

- **التدريس في المسجد ودوره الفاعل في العمران الحضاري**

المساجد بيوت الله فيها يعبد وفيها يذكر اسمه: وهي خير بقاع الله في الأرض. قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[التوبة: ١٨]. وكان أول عمل قام به عليه الصلاة والسلام بعد وصوله إلى المدينة بناء المسجد ؛ نظراً لأهمية الدور المنوط بالمسجد، كمنارة تربية وتعليم وتوجيه، ومكانة في قلوب المسلمين، ومقر للشورى واستقبال الوفود[3].

والمجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ، والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد[4].

---

[1] الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣١٢، ج١/ ص١٦٩ وقال الالباني صحيح.

[2] إبراهيم محمد علي، شيخ الإسلام ابن تيمية، دمشق، دار القلم، ١٤٢١هت – ٢٠٠٠م، ص٨٤.

[3] صالح بن غانم السدلان، المسجد ودوره في التربية والتوجيه وعلاقته بالمؤسسات الدعوية في المجتمع، المملكة العربية السعودية: دار بلنسية ١٤١٩هـ، ص٧.

[4] محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، ٢٠٠٣م، ص١٤٣.

ولكن هذا الدور لم يستمر، وإنما أخذ يضيق وينكمش بعد أن توزعت بعض هذه الوظائف على مؤسسات أخرى[1]. والحياة المعاصرة وإن بدت معرضة عن رسالة المسجد إلا أن الواقع يؤكد أن الحاجة لرسالته ضرورة ملحة ؛ للتعاضد مع الوسائط التربوية الأخرى ليرشد ويصوب مسارها، ويكون رافداً لإشعال فتيلة الإبداع الحضاري تارة أخرى.

وها هي عائشة الباعونية تجود بأعذب العلوم في مساجد مصر.

- **الحرص على نيل العلم من المتمكنين**

ونلحظ جلياً من خلال استعراض سيرة (عائشة الباعونية) حرصها على تلقي العلم من المتمكنين منه. فها هي امرأة ترتحل من أجل العلم من باعون إلى دمشق إلى حلب إلى القاهرة رغم ظروف السفر القاهرة في ذاك العصر. وخصوصية المرأة في السفر. يقول ﷺ "خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب"[2].

قال القرطبي "وتخصيص هؤلاء الأربعة بأخذ القرآن عنهم: إما لأنهم كانوا أكثر ضبطاً وأتقن لأدائه ؛ أو لأنهم تفرغوا لأخذه منه مشافهة وتصدوا لأدائه من بعده، فلذلك ندب إلى الأخذ عنهم"[3].

والله عز وجل يدعونا من خلال كتابه المسطور إلى أخذ العلم من أهله، ومن المتمكنين قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾[النحل: ٤٣].

---

[1] محمد حسين الذهبي، رسالة المسجد في العالم عبر التاريخ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد – مكة المكرمة– رابطة العالم الإسلامي، ١٩٧٥م، ص٤٦١.

[2] البخاري، صحيح البخاري، ٣/ ١٣٨٥ رقم٣٥٩٧.

[3] القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، القاهرة، دار الشعب، ١٣٧٢هـ، ج٨، ص٢١١.

فطالب العلم يُمعِن فيمن يأخذ عنه العلم "فيختار الأعلم"[1] "الذي كملت أهليته، وكان أحسن تعليماً وأجود تفهماً"[2]. فالمتعلم يأخذ كل فن من أهله ويعتمد في كل فن على من هو أحسن تعليماً له، وأكثر تحقيقاً فيه وتحصيلاً منه[3].

ومن أعظم النعم على المتعلم "الظفر بعالم متمكن من علمه"[4]. ولم تكتفي بذلك بل تجاوزت حرصها إلى الرحلة لطلب العلم والتعليم حيث إن الرحلة تعتبر وسيلة لإتمام العلم وكمال المعرفة ؛ لأن بحر العلم لا ساحل له: "وكان لعلماء الحديث الاهتمام بذلك أكثر، فلحديث واحد كانوا يقطعون مساحات شاسعة ويرحلون إلى بلاد بعيدة"[5]. قال الاصفهاني: "لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطيء والدثار الدافئ"[6]، وقال ابن جماعة: "ويقطع الطالب ما قدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن"[7].

والمتتبع لتاريخ الرحلات العلمية يعلم أنها بدأت منذ جيل الرعيل الأول، وامتد الأمر وشاع هذا الدستور حتى عصر ابن خلدون، فقد عقد فصلاً خاصاً في مقدمته سن فيه أهمية الرحلة في طلب العلم ويؤكد على: "قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، فتعدد المشايخ يفيد بتعدد الطرق إذ إن لكل منهم طريقته في التعليم"[8]، بل إن تنوع مصادر

---

[1] الزرنوجي، تعليم المتعلم في طريق التعليم.

[2] ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تحقيق على زعرور، ص٢٤٦.

[3] المرجع السابق ص ٢٥٧.

[4] الماواردي، أدب الدين والدنيا، ص ٧٥.

[5] أبي المعالي عبد الملك بن يوسف الحويني، كتاب التلخيص في أصول الفقه تحقيق عبدالله الشلبي، وبشير العموسي، بيروت، دار البشائر، ١٩٩٦م، ص٣٥.

[6] تذكرة السامع والمتكلم، ص٧٠.

[7] المرجع السابق، ص ٧١.

[8] ابن خلدون، المقدمة، ص٢٩٩-٣٠٠.

التلقي تنير الفكر وتحميه من أحادية النظرة العلمية إضافة إلى أنها تربي الذوق العلمي خاصة والإنساني عامة.

- **(المرأة الرسالية)[1] ودورها الفاعل في النهوض والعمران الحضاري.**

معلم تربوي وحضاري بارز يستحق وقفة متأنية وذلك بأن تضطلع وتحظى عائشة الباعونية بنموذج (المرآة الرسالية) في عصرها وبهذه المكانة ؛ لتكون عالمة في فنون مختلفة من العلوم مثل: الفقه،والأدب،واللغة وتتصدر مجالس العلم ويشهد مجلسها عشرات الرجال في القرن التاسع والعاشر الهجريين بيد أن امرأة القرن الحادي والعشرين ممن انسحبت عليها نموذج ثقافة الآخر، كنماذج الفن وغيرها، وباتت أسيرة لغير ثقافتها وعقيدتها، وتسير خلف ظلال الثقافات الوافدة ممن أُطلق عليهن أصحاب الإرادات المغرضة "نجوم" وقدمها الإعلام للأجيال الحاضرة والصاعدة قصص نجاح باهرة – في أغلب الأحيان- تقع تحت سطوة شعارات برّاقة من حقوق المرأة، والمساواة، والحرية وغيرها ناهيك عن الشهادات العلمية والأوقات التي قد تستنزف وقتها وأوقات الأمة، وربما قصورها في حق رسالة الأمومة والزوجية وفي نهاية المطاف تقف قاصرة عن العطاء، والفاعلية المنشودة في كثير من الميادين ومجالات الحياة.

وتعد عائشة الباعونية رائدة من عصرها إلى اللحظات الراهنة ليس في العطاء فحسب بل في الصفاء والنقاء، فها هي تمدح أعيان وأدباء زمانها، وتدور بينهم حوارات ومساجلات أدبية طويلة، ولكنها تبقى منسلخة من قبضة الماء والطين؛ لأنها انطلقت من تربية إيمانية عميقة الجذور. فلم تكن مسلوبة الهوية تقع تحت سطوة الهزيمة النفسية أمام ثقافة الآخر الوافدة.

---

[1] المرأة الرسالية، هذا المفهوم استخدمته الباحثة في مقالة نشرت لها بعنوان المرأة الرسالية بين الواقع والطموح، إنصاف المومني، السعودية، جدة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٢٠١٣م.

يقول A.A bram أحد مفكري الغرب بوصف موجز للمرأة الأوروبية في العصور الوسطى: إن الاهتمام بتعليم الفتاة كان أقل بكثير من الاهتمام بتعليم الرجل بل إن الأوقاف على التعليم كانت مقصورة على تعليم الصبيان[1].

هذه المقارنة السريعة لنهاية العصور الوسطى بين المرأة في أوروبا، والمرأة في العالم الإسلامي، وقد بدأ الوهن يتسرب إلى الحياة الإسلامية. ولكن عائشة الباعونية سارت على خطى أمهات المؤمنين في عصور النقاء الإسلامي الذي خاطبهن رب السماء " واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة". الاحزاب ٣٤. وهن يسمعن قول النبي - ﷺ - :"طلب العلم فريضة على كل مسلم"[2].

ومن هنا قال الإمام ابن حزم - رحمه الله - : " ويجب عليهن - أي النساء- التفقه في الدين، كوجوبه على الرجال، وفرض عليهن معرفة الأحكام الشرعية"[3].

لقد أقبلت المرأة المسلمة على العالم بدوافع طيبة منذ أكرمها الله تعالى بالإسلام، فنهلت أعذب العلوم ولعلها فاقت الرجال، قيل لمسروق: "كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تحسن الفرائض"؟ قال: "والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض"[4]، وقال عطاء بن رباح: " لو جمع علم الناس كلهم، وأمهات المؤمنين، لكانت عائشة رضي الله عنها أوسعهم علمـاً"[5].

فهذا النموذج النسائي الرائد ما زال ماثلاً للسائرات على طريق العلم وخدمته، فلا نحتاج إلى البحث عن نماذج بائسة من عند الآخر- أحياناً كثيرة - كما هو على الساحة

[1] أحمد الشلبي، التربية الإسلامية نظمها، فلسفتها، تاريخها، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٣٩٣،

[2] رواه ابن عدي والبيهقي عن أنس، والبصري في الكبير عن ابن مسعود.

[3] ابن حزم، الأحكام، ص٤١٢.

[4] أخرجه الدرامي٢/ ٢ ٣٤ وابن سعد في الطبقات، ٨/ ٤٥.

[5] المستدرك ٤/ ١١.

المعاصرة. وإذا كانت المرأة التي انبهرت بالثقافة الوافدة قد انصهرت بها، فإنه في الوجه المقابل لا ينبغي قولبة المرأة المسلمة بغير ما أمر ربنا وأراد.

- **أهمية الثراء الوجداني للمرأة المبدعة**

ونحن نتحدث عن شاعرة[1] مرهفة الإحساس، رقيقة الطبع لا بد أن ذلك قد ترك لها قبولاً في حياتها وحياة أخرى امتدت بعد مماتها، فما زال ذكرها بعد الممات ولعل صدق الإحساس وعمق غوره لا يقل أهمية عن أهمية المعرفة وسعتها.

ولقد شهد المؤرخون لعائشة الباعونية صدق وتدفق مشاعرها وفي الحنين إلى مكة والمدينة وإلى دمشق والصالحية، وتقول في حنينها إلى الصالحية في دمشق والتي كانت تفيض شوقاً وحناناً إليها.

حنيني لسفح الصالحية
والجسر أهاج الهوى
بين الجوانح والصدر
وشوقي إلى تلك
المعاهد لم يزل يفيض
لي الأشجان من حيث لا أدري[2].

ولعل الوجدانيات النابضة بالحياة تربطها علاقة حميمة بالأنوثة الإيمانية الفطرية للمرأة المفكرة، وهذا المعلم التربوي من الضرورة الملحة استدعائه في بناء وصياغة نموذج المرأة المفكرة المسلمة المعاصرة أمام كثافة الضغط المادي والخروج عن الأنوثة الفطرية، وتدفق وجدانياتها وانزياح المرأة المعاصرة نحو الرجولة بكثير من الأحيان.

---

[1] لعائشة الباعونية عدد كبير من المؤلفات الشعرية ذكر مسبقاً تحت عنوان مؤلفاتها.

[2] در الحبيب، ج٢، ص٤٥٦.

المطلب الثالث:

التقييم:

لقد دأبت عدد من الأقلام الجادة بكتابة المبحث التقييمي في خاتمة دراساتهم عند تناول أي علم من الأعلام المعاصرة، أو الحاضرة في عمق التاريخ، وذلك بعيداً عن الانحياز للأشخاص؛ لتقديم رؤية منصفة،وفي سبيل ذلك سيتم تناول المبحث التقييمي لعائشة الباعونية من حيث النقلة النوعية التي أحدثتها في عصرها، ومكانتها العلمية، والأثر الذي تركته لمن بعدها.

وإن كنا قد قدمنا في مستهل هذه الدراسة (إطلالة على عصر عائشة الباعونية) ونقلنا عن المؤرخين أن عصر عائشة الباعونية هو عصر العالمات، إلا أن هناك من المؤرخين من يرى الحالة المعرفية والثقافية لدور العالمات لهذا العصر من نافذة أخرى حيث يقول: (إن دور المرأة في القرن التاسع لم يكن كالقرنين الماضيين ولا يقاربهما بل نجد قلة من النساء العالمات)[1]. ومن المعلوم أن هذا القرن قد نشأت وترعرعت فيه عائشة الباعونية.

"وإذا انتقلنا إلى القرن العاشر هجري نجد تراجعاً كبيراً في العطاء العلمي عامة، وذلك عند الرجال والنساء سواء، واستمر العطاء الفقهي لوجود القضاء والإفتاء والتدريس فيه"[2].

علماً بأن هذا القرن الذي استكملت عائشة الباعونية عطاءها، وثمرة نتاجها، ومؤلفاتها فيه وتفردت من بين أقران زمانها.

ويضيف النجم الغزي قائلاً: "غير أننا نجد في هذا القرن – يقصد القرن العاشر- سيدة جليلة كانت من نوادر الزمان فضلاً وعلماً وأدباً وديانةً هي: عائشة الباعونية"[3].

مما يؤكد الدور الحضاري والريادي لعائشة الباعونية في عصرها والممتد الأثر إلى اللحظات الراهنة.

---

(1) محمد مطيع الحافظ، أعلام النساء الدمشقيات، دمشق، دار المكتبي، ص ١٢.

(2) المرجع السابق، ص١٣.

(3) النجم الغزي، شذرات الذهب، ص ١٤٠.

يقول الزيات: يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تفوق الرجال في العلم والأدب[1].

ويضيف ربابعة: "لم تكن عائشة الباعونية أشعر نساء قرني التاسع والعاشر اللذين عاشت فيهما، وأعلم نسائهما فحسب بل ربما لم يكن بعد كبار الصحابيات والتابعيات من يشبهها في العلم والفعل والإجادة فلقد كانت مصنفة مكثرة ربت على العشرين مصنفاتها، وفي حقول المعرفة المختلفة، منها: الفقه، والسيرة النبوية، وعلوم العربية من نحو ولغة"[2].

وثلة من الذين كتبوا عن الباعونية الشاعرة كانوا معجبين بقدرتها الشعرية في تكوين موضوعاتها، وحسن سبكها وصياغتها مع روح شفافة تجلت بارعة في مدائحها النبوية، ومثلما برعت في النظم برعت في النثر، ويكفي أنها شرحت بديعيتها، وقدمت لها بعبارة رشيقة وأسلوب جميل[3].

أما بصدد المكانة التي تشغلها عائشة الباعونية على الساحة العالمية الإسلامية "فقد وافق المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو العالمية على تنسيب وزارة الثقافة المتضمن ترشيح الشاعرة والأديبة الأردنية عائشة الباعونية؛ لتكون ضمن المكرمين خلال احتفالات المنظمة بالذكرى المئوية لتأسيسها والتي تصادف عام (٢٠٠٦م) ويأتي هذا الترشيح من الوزارة بالتعاون مع اللجنة الوطنية الأردنية لإحياء ذكرى من أسهموا في خدمة الثقافة والمعرفة، وكانت لهم إسهامات علمية وثقافية في التاريخ الإنساني بعد مرور ٥٠ عاماً على وفاتها"[4].

---

[1] أحمد الزيات، تاريخ الأدب العربي، مصر، القاهرة، دار النهض، مطبعة الرسالة، ص٤١٣.

[2] حسن الربابعة، عائشة الباعونية "شاعرة"، الأردن، جامعة اليرموك، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص٧.

[3] عائشة الباعونية، البديعية وشرحها، ص١١، مرجع سابق.

[4] صحيفة الرأي الأردنية، اليونسكو تكرم الشاعرة الأردنية عائشة الباعونية، عمان، الأردن، وكالة بترا، ٣٠/٦/٢٠٠٦م، ص١٢.

بيد أن أي جهد إنساني لا يبلغ الكمال، فقد وُجّه ملحظٌ لعائشة الباعونية لتكلف السجع، والبديع اللغوي في كتاباتها.

فيرد الزيات على ذلك قائلاً: "لا يعيب عائشة الباعونية تكلف السجع والبديع اللغوي، فإن المرء صنيع بيئته، والشعر الحق مرآة صاحبه وصور قلبه".[1]

كما وُجه ملحظ آخر لعائشة الباعونية، وذلك أن تشعب وتنوع اهتمامات عائشة الباعونية من الفقه، والشعر، والأدب قد يقود للاقتراب من العموميات في التخصص وعدم التركيز على التخصص الدقيق، ولعل العصر المملوكي، وتلك العصور التي خلت منذ أحقاب كان من المشهود لها بالعلماء الموسوعيين حيث تتشعب القدرات والملكات وتثمر الإجادة والتميز في أنواع متباينة من العلوم، وهناك من ينادي حتى في ظل القرن الحادي والعشرين بالخروج من الولاء المطلق للتخصص ومن (زنزانة التخصص). للانفتاح على تخصصات أخرى انطلاقًا من تخصصه الأصيل الدقيق لفتح نوافذ وقنوات تواصل على التخصصات الأخرى؛ للثراء والتنوع المعرفي وللتواصل في مختلف وشتى العلوم التي تخدم العمران والشهود الحضاري. ألا أن الذي يكتب عن كل شيء تفوته أشياء كثيرة، والذي يركز على جزئية واحدة لا يفوته إلا القليل[2]ولكن لا يستطيع تجاوز خصوصية، وطبيعة العصور الماضية.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، وهي :

١- تعد عائشة الباعونية واحدة من أبرز العالمات التي تجاوز أثرها عصرها، وامتد للعصور الحاضرة، يمكن للمرأة المسلمة المعاصرة استنطاق أسرار تألقها للاستزادة منها.

---

[1] أحمد الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص٤١٣، مرجع سابق

[2] عبد الناصر أبو البصل، واقع تدريس العلوم الإسلامية في الجامعات: مراجعة نقدية للأدبيات، مجموعة بحوث في البحث التربوي وتطبيقاته في العلوم الإسلامية في التعليم الجامعي – دار الرازي، تحرير فتحي ملكاوي، ٢٠٠٣م، ص١٤٦.

٢- من أبرز المعالم التربوية المستقاة من السيرة الذاتية لعائشة الباعونية، والتي رفدت تميزها هي التنشئة الأسرية التي توسع فضاء الحرية المنضبطة، وحفظ القرآن والثراء الوجداني الأنثوي الفطري، والرحلة في طلب العلم والحرص على نيله من المتمكنين، والتدريس في المساجد، والطاقة الإيمانية المتدفقة.

وفي نهاية المطاف انتهت الدراسة بالتوصيات الآتية:

- القراءة الواعية (برؤية نقدية) للتراث التربوي الإسلامي؛ لاستحضار النماذج الخالدة لعالمات مسلمات؛ لتوظيفها في الواقع الحاضر؛ ولرفد الطاقة الإبداعية لمسلمة العصر.
- إجراء دراسات على جوانب أخرى للعالمة عائشة الباعونية من حيث جهودها التربوية والمصادر التي شكلت معرفتها وغيرها.
- إعادة النظر في ضرورة وإظهار دور المرأة الرسالية الفاعل والمؤهل للبناء الحضاري.

البيان الختامي للمؤتمر الدولي حول:

التصوف الراشد: جذوره، أفاقه ودوره في بناء الحضارة الإنسانية

المنعقد في الثامن عشر من أيلول في عمان١٨ /٩/٢٠١٩

بالتعاون بين المنتدى العالمي للوسطية ومنتدى الفكر العربي

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى جميع أنبياء الله المكرّمين.. وبعد ..

فقد عُقِدَ في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية في الثامن عشر من شهر / أيلول/ لعام ٢٠١٩ م الموافق الثامن عشر من / محرم/ من سنة ١٤٤١ للهجرة، مؤتمراً دولياً حوْل "**التصوف الراشد: جذوره، آفاقه، ودوره في بناء الحضارة الانسانية**"، وذلك بالتعاون بين منتدى الفكر العربي في عمان والمنتدى العالمي للوسطية، وقد لبّى الدعوة لحضور هذه الندوة وللإسهام الفاعل فيها بالإتجاهات والأوراق العلمية عدد من مفكري الأمة الأسلامية وعلمائها من كُل من الأردن، واليمن، والسودان، والعراق، والمغرب، وتركيا، والهند، ونيجيريا، فكان مناسبة كريمة التقت فيها وساهمت في تحقيق قُصاراها من الأثر الطيب والعلم النافع نُخبةٌ من الدارسين والمفكرين الذين توفروا على موضوع المؤتمر بحثاً وتحليلاً، تحت عنوانات ذات أهمية قصوى،: على النحو التالي : "التصوف بين الروحانيات والماديات والتوظيف السياسي (التصوف والسياسة)و"التصوف والأبعاد النفسية"و" التصوف وأثره في تربية المجتمع والفرد (التصوف والأخلاق) و"التصوف في الأردن والعلاقة مع التيارات الإسلامية الأخرى"و" التصوف"رؤية من زاوية مختلفة "و" التصوف الراشد ودوره في الحفاظ على هوية الأمة (الحركة المهدية أُنموذجًا) "و" التصوف والسلام العالمي : رؤية إنسانية "و"صدى فكر التصوف في بلاد الغرب" والدور الحضاري للتصوف الإسلامي "و" من أعلام التصوف: جلال الدين الرومي"و" من أعلام

التصوف: عبد القادر الجيلاني (المدرسة الجيلانية)"و" البعد الجواني في الاسلام في فكر طه عبد الرحمن "و" دور التصوف في الإبداع الحضاري (عائشة الباعونية انموذجاً"

وقد قدم اوراق هذه البحوث الاساتذة الأفاضل : الامام الصادق المهدي رئيس المنتدى العالمي للوسطية من السودان والدكتور محمد كورماز وزير الشؤون الدينية الأسبق من تركيا والسيد ابراهيم خليل البخاري رئيس جامعة معدن للثقافة الإسلامية من الهند، والدكتور قحطان الدوري استاذ الفقه وأصوله في جامعة العلوم الإسلامية سابقا من العراق الدكتور عبد الفتاح اليافعي المشرف العام على مركز الخيرات العلمي الدعوي من اليمن، والدكتور عبد المحمود أبّو الأمين العام لهيئة شؤون الأنصار من السودان، والدكتور عبد الرحمن ذاكر الهاشمي الطبيب الاستشاري في العلاج النفسي من الأردن، والشيخ رافع الرفاعي مفتي الديار العراقية، والدكتور محمد زاهد جول مدير مركز شرقيات للبحوث من تركيا، والدكتور عبد الله الكيلاني عميد كلية دراسات الاسلام في العالم المعاصر سابقاً من الاردن، والأستاذ ابراهيم العجلوني المستشار الثقافي في المنتدى العالمي للوسطية من الأردن، وسماحة، والدكتور عبد الرحمن حسن أحمد استاذ التفسير وعلوم القرآن من السودان، والدكتور عبد الفتاح الزئبقي استاذ التعليم العالي في جامعة الحسن الثاني من المغرب، والدكتور عزمي طه السيد أحمد استاذ الفلسفة في جامعة آل البيت سابقاً من الأردن، والدكتورة إنصاف المومني الأستاذة الجامعية من الأردن.

وقد كانت أوراق المؤتمر الخمس عشرة هذه حول التصوف الاسلامي موضع مناقشة مستفيضة وحوار عميق بين المشاركين في الندوة.

ثم خلُص المؤتمرون الى جملة من التوصيات أهمها التالية :

أولاً: توكيد أهمية معرفة حقيقة التصوف الأسلامي بما في ذلك تأصيل مفهومه بالكتاب والسنة وبيان أشكاله ومذاهبه.

ثانياً: ضرورة تعزيز معنى الأعتدال في التصوف والإبتعاد به عن ما يشوه وجهه الكريم من ممارسات.

ثالثـًا: التحذير من توظيف التصوف سياسيـًا من جهه، ومن إنزوائه بعيداً عن الحياة من جهة أخرى.

رابعـًا: توكيد مساهمة المتصوفة في نشر الاسلام في أبعاده الروحيه والأخلاقيه في أنحاء الأرض، وفي نشر تعاليمه السمحه بين الشعوب.

خامسـًا: توكيد الدور الحضاري المطلوب للتصوف قياسـًا على ما كان من أثاره االسابقه في المدنية الإسلاميه وسائر المدنيات.

سادسـًا: ضرورة ترجيح جانب الإنخراط والتماهي في المجتمعات الإسلامية وقضايا الأمة المعاصرة وخاصة قضية فلسطين وقضايا الحريات والديمقراطية والإنحياز إلى الأمة في مواجهة كل أشكال البغي والطغيان والتعسف في استخدام السلطة لدى الحركات الصوفيّة على جانب الاعتزال والإنغلاق.

سابعـًا: بيان أن "التصوف الحقيقي" المنطلق من الكتاب والسنة والأخلاق العاليه التي تَمثّلها الصحابة والتابعون لا بد أن يكون تصوفـًا راشداً ومسؤولاً وبنّاءً وداعيـًا الى السّلام الذاتي للأفراد والمجتمعات والسلام الإنساني العام، ورافضـًا لكل ألوان التطرف المذهبي أو الديني.

ثامنـًا: ضرورة تنادي الطرق الصوفية الى مؤتمر مراجعات نقدية يحدد إيجابيات التصوف وسلبياته ويضع خريطة طريق لدور التصوف في نهضة الأمة وفي بناء الحضارة الإنسانية.

تاسعـًا:توكيد دور التصوّف بصفة كونه قوة ناعمه للإسلام تستطيع أن تنشر الإسلام بالحسنى والخُلق في أقطار الأرض كافة.

عاشراً:بيان أن تغييبَ العقل وتجاوز الشريعة مرفوضان في التصوف الراشد.

حادي عشر:بث العلم والوعي في صفوف المنتمين إلى منهج التصوف وذلك بتوجيههم إلى العلم الصحيح المبني على نصوص الكتاب والسنة، وعدم التعصب والغياب في قضايا الأحلام والرؤى والكرامات والبعد عنه والتقليد المذموم كما أوصى بذلك الإمام الجنيد رحمه الله تعالى.

ثاني عشر:أن يقوم العلماء المؤهلون المتضلعون بتنقية وتصفية هذا الفكر وتراثه مما علق فيه مما لا يثبت عند البحث والتمحيص تحقيقاً للتجديد الذي جاء في الحديث الصحيح.

ثالث عشر:توجيه المنتسبين لهذا المنهج ليكونوا مؤثرين ومصلحين وقدوة صالحة في مجتمعاتهم وليحيوا هذا الطريق المبني على (تزكية النفوس) ويدعوا الناس إليه على علم وبصيرة دون إفراط في تعظيم المشايخ أو إدّعاءِ عصمة لهم وأنهم لا يخطئون، فالإمام مالك رحمة الله تعالى يقول: (كل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ).

رابع عشر:بيان أنه ينبغي علينا، في عالم اليوم الذي تشيع فيه منظومة حقوق الإنسان بإرادة من الشعوب، أن نحقق أعلى درجة من التعايش بين مذاهب المسلمين، وبين أتباع الأديان وبين الثقافات والحضارات، بصفة ذلك كله دوراً بالغ الأهمية للتصوف الراشد في بناء الحضارة الإنسانية.

خامس عشر: توكيد الدور التاريخي الكبير للتصوف في الإصلاح الإجتماعي وفي قيادة صفوف المجاهدين المتصدين للعدوان الخارجي على الأمة، وفي الوقوف في وجه الإستعمار، على نحو ما كان في الجزائر والمغرب وليبيا والسودان وغيرها من ديار الإسلام.

سادس عشر: ضرورة الإتفاق على خطاب إسلامي جامع يستجيب لكل مطالب الفطرة الروحية والإجتماع والعقل الإنسانيين.

ونملك أن نقول في خاتمة هذا البيان أن هذا المؤتمر الذي أُقيم بالتعاون مع منتدى الفكر العربي الذي يشرف برعاية سمو الأمير العالم الحسن بن طلال أدامه الله ورعاه، والذي قُيّضَ له بحمد الله نجاح المسعى بما اشتمل عليه من بحوث وحوارات، وما انتهى إليه من توصيات إنما هو خطوة آخرى يخطوها المنتدى العالمي للوسطية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي لمزيدٌ من التنوير والوسطية والاصلاح .. والله من وراء القصد ..

والحمد لله رب العالمين..

الفهرس

هذا الكتاب

تنبع أهميته من خلال رسالة المنتدى العالمي للوسطية في إلقاء الضوء على حقيقة التصوف الراشد الذي يساهم في عمليات إصلاح الفرد والمجتمع معاً. وكذلك إبراز حقيقة أن التصوف هو جزء أصيل من تراث الأمة الإسلامية يخدم الإنسان وكرامته وذاتيته.

ويلقي الضوء على مفهوم الوسطية والإعتدال لدى الأمة من خلال الحفاظ على الموروث القيمي والأخلاقي لإعادة الثقة لأبناء الأمة الإسلامية الواحدة ودورها في محيطها القيمي والأخلاقي، والتوازن كنهج إسلامي رائد في حل الخلافات بالحوار ورفض التأزيم والصراع والعنف مهما كانت أسبابه ومبرراته. ولأجل مزيد من المعرفة لأصول التصوف الإسلامي، ولما كان له من آفاق وتجليات، ولما يُنتظر أن يكون له من دور في واقع ومستقبل الأمة الإسلامية والعالم أجمع.

ويعرض الرأي الجامع إلى النهضة بأرباب هذا المنهج المبارك، لئلا يبقى بعض أفراده غير مدركين ولا عارفين بالضوابط التي وضعها كبار الأئمة من السادة الصوفية الذين لا يريدون أن يعيش أفراد هذا السبيل في غير الواقع ولا يقتصرون فقط على طرب القصائد أو سماع قصص الكرامات دون تحقيق أسس هذا المنهج الذي هو الطريق الأقوم إلى الله تعالى.

كما يسعى لتوجيه المنتسبين لهذا المنهج ليكونوا مؤثرين ومصلحين وقدوة صالحة في مجتمعاتهم وليحيوا هذا الطريق المبني على (تزكية النفوس) ويدعو الناس إليه على علم وبصيرة دون إفراط في تعظيم المشايخ أو ادعاء عصمة لهم وأنهم لا يخطئون.

ونأمل أن يكون ما جاء في الكتاب بأقلام نخبة من علماء التصوف له أثر في بث روح التجديد والنهضة بالصوفية والتصوف وتحقيق الوعي في صفوف المنتمين إلى منهج التصوف وذلك بتوجيههم عبر نقطة تواصل إلى العلم الصحيح المبني على نصوص الكتاب والسنة، وعدم التعصب والتقليد المذموم كما أوصى بذلك إمام التصوف الجنيد رحمه الله تعالى .







